إبراهيم أصلان

خلوة الغلبان

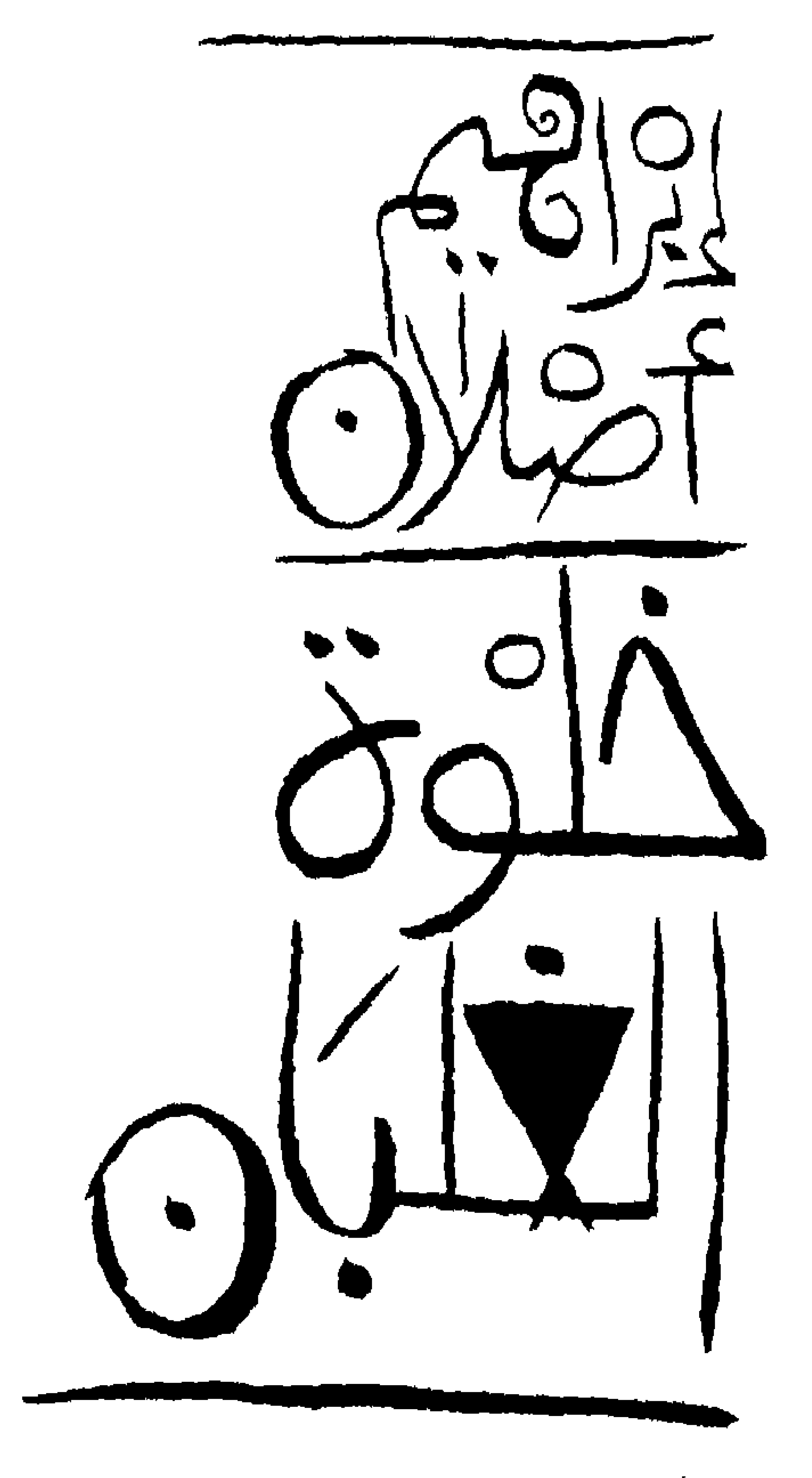
دار الشروق


خلوة
الغلبان

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com



دار الشروق

تــواطـــــؤ

غادرت مقر عملي بجريدة (الحياة) في حي جاردن سيتي حيث ارتبطت بموعد في وسط البلد. كانت عربتي الصغيرة تخضع لعملية سمكرة ودوكو من أجل الفحص والتجديد الذي أجريه كل ثلاث سنوات، لذلك وقفت أمام كشك (غريب) بائع المرطبات والدخان في انتظار عربة أجرة تقلني إلى هناك. مرت عدة عربات وأنا أرفع يدي للسائق الذي يراني ولا يتوقف.

مشيت قليلا وتوقفت. ورائي كانت عربات شرطة واقفة في ظل الشجرة الكبيرة وبداخلها بعض الضباط، والجنود يتباعدون في ثيابهم العسكرية وأسلحتهم المشرعة حول أسوار السفارة الأمريكية القريبة. بعد فترة، فكرت في احتمال أنهم قد منعوا التوقف في هذه المنطقة الممتلئة بالسفارات بسبب من إجراءات الأمن التي جرى تشديدها بعد أحداث واشنطون الأخيرة. كان علي أن أمشي إذن حتى ميدان التحرير لكي اركب. بدأت أتحرك مترددا وأنا أشعر بالضيق من حرارة الجو التي كانت خانقة. ثم عدت وفكرت بأنه لو كانت هناك أوامر جديدة بعدم التوقف هنا فليس معقولا أن كل السائقين قد سمعوا بها. وهذا ما حدث فعلا، لأنني ما أن التفت وأنا عند مدخل السفارة الأمريكية ورأيت عربة قادمة وأشرت للسائق حتى توقف. فتحت الباب وجلست بجواره على المقعد الذي سقطت حشوته وأغلقت الباب. والسائق قال:

«لأ . افتحه واقفله جامد» .

فتحت الباب مرة أخرى أثناء تحرك العربة وأغلقته بشدة .

عندما انتهيت من وضع حزام الأمان على كتفى دون أن أشبكه فى القفل المثبت على يسارى ، رأيته يتطلع فى المرآة التى أمامه ويقول :

«ألله . هو أخد نمرتى ليه؟» .

كان عجوزًا وصوته خافت جدًا . سألته :

«هو مين؟» .

«الظابط» .

استنكرت ما حدث وقلت :

«مش معقول» .

«والله أخد نمرتى» .

كان مستمرًا فى طريقه ببطء وأخبرنى أنه لم يفعل شيئا يستحق الغرامة :

«دا احنا لسه ما عملناش حق البنزين» .

وعندما توقف فى الإشارة القريبة من جامع عمر مكرم قلب كفه على مقود السيارة وتساءل بهدوء :

«إيه الكلام الفارغ ده؟» .

قلت :

«جايز كان بيكتب نمرة واحد تانى؟»

وانشغلت بتأمل العربات التى تملأ الميدان ، وهو ظل صامتًا حتى فتحت الإشارة ، وقال :

«جايز».

وبعد فترة رجع قال:

«لكن جايز إزاى؟ ده الشارع كان فاضى ومفيش حد غيرنا؟»

أخبرته أن هذا شيء غريب فعلا، وقدمت له سيجارة ولكنه رفض.

شعرت بالحرج واقترحت عليه:

«أنا رأيى أنك إذا مريت من هناك، لازم تسأله».

قال:

«أسأل إيه وأنيل إيه؟ هى دى بلد حد يسأل فيها عن حاجه؟»

وسكت.

وسكت أنا الآخر.

بعد فترة، طلبت منه أن ينزلنى عند الناصية القادمة. وعندما توقف بجوار الرصيف فتحت الباب وخرجت.

مددت يدى بالأجرة وتناولها منى وهو يميل برأسه على عجلة القيادة حتى يرانى من النافذة المفتوحة، ويقول:

«أموت، واعرف هو أخد نمرتى ليه».

وأنا اندهشت أمامه، وابتعدت.

(مارس ٢٠٠٢)

عينات للعرض

كنت فى طريقى إلى موقف عربات الأجرة الجانبى عندما رأيته أمامى .

فى البداية لم أتبينه تمامًا ، ولما دققت فيه أيقنت أنه هو وصحت :

«أستاذ مصطفى؟» .

قال بفتور :

«يا أهلا» .

كنا نقف فى قلب الساحة المزدحمة . أكوام قمامة وبائعات يجلسن على الأرض وراء حلل ومشنات مبطنة بأعواد برسيم وممتلئة بقطع الجبن القريش والزبد ينادين عليها وعلى أرغفة العيش البيتى الكبيرة ويدفعن الذباب بأيديهن ، والناس يحتكون بنا بينما هم يتجهون إلى هنا أو هناك .

حاولت أن أتحرك به جانبا ولكنه ظل ثابتا يتطلع إلىّ بعينيه الرماديتين من وراء زجاج نظارته بإطارها المعدنى الذى امحى لونه الذهبى وصار رصاصيا عند الأذنين . جعلنى رأسه الكبير المائل إلى الوراء ، وإلى جانب فى نفس الوقت ، أتذكر هيئته القديمة وهو يجلس وراء مكتبه يفحص القصص بعناية بينما أجلس أمامه برفقة صديقى القاص الراحل ضياء الشرقاوى . كان شعره قد خف تمامًا وبهت لونه وبدت ثيابه كأنه ينام ويصحو بها .

كان يعمل محرراً فى أول مجلة أرسلت لها شيئًا للنشر ، كنت قد أرفقت الرسالة التى حملت قصتى مظروفًا خاليًا يحمل اسمى وعنوانى وطابع البريد ورجوت منهم أن يعيدوا لى المظروف برأيهم وألا يردوا على فى بريد القراء . وجاءنى الرد مكتوبًا يحمل توقيعه ، ويقول :

«نشكركم على قصتكم ، كان بودنا نشرها ولكن خط المجلة الذى يلتزم الفصحى يأبى ذلك» .

ولأنها كانت أول رسالة تصلنى من مطبوعة ما فقد احتفظت بها طويلا ، وقلت :

«إنت فين يا عم؟ » .

قال :

«موجود » .

أخبرته أننى التقيت بالأستاذ فؤاد (زميله فى المجلة) وسألته عنه . وهو قال إن فؤاد استقر فى المنصورة من سنين :

«بعد إغلاق المجلة على طول» .

كان يقف أمامى وقد شبك يديه على بطنه وبدت فى عينيه نظرة غريبة لا تدل على أى من الأشياء المعروفة ، وأنا هززت رأسى ولم أعرف ماذا أفعل بعد ذلك ، ثم وجدتنى أقول فيما يشبه التأثر أو الاهتمام إننا لم نقرأ له شيئا منذ سنوات (فى الحقيقة أننى لم أكن قرأت له شيئا على الإطلاق) .

وهو قال متباطئًا :

«كان فيه شوية مشاكل» .

وأضاف أنه مر بتجربة :

«عطلتنى شويه» .

ثم تحدث ، بصوت خافت جداً عن مشروع زراعى كبير فهمت أنه قام به ولكنى لم أتبين جيداً إن كان المشروع فشل بسبب زيادة مياه الرى أو ندرتها . وأضاف :

«لكن الورق قدامى ، على المكتب» .

حينئذ حاولت أن أبدو سعيداً بهذا الخبر . وهو نظر قليلا إلى حذائه ثم رفع رأسه وقال بأنه عمل مصنعًا للبلاستيك .

سألته :

«هنا فى المنطقة؟»

«لا . عندى فى الشقة» .

وأخرج من جيب سترته مسطرتين قصيرتين ومثلثا من البلاستك . لم تكن شفافة بل ممتلئة بالشوائب وليس لها لون معروف والحواف التى قد يستخدمها أحدهم لرسم خط معتدل معوجة إلى حد لا يمكن إنكاره ، أما العلامات التى تحدد الأطوال مثل المللى والسنتى فقد كانت نتوءات لا تدل على شىء . ظل يعرضها علىّ حتى ظننت أنه يريدنى أن أشتريها ، ولكنه أعادها إلى جيبه وقال :

«دى عينات للعرض » .

فكرت على الفور أن أى أحد يراها لن يشترى منها أبداً . وهو أعادها إلى جيبه وأضاف :

«علشان منافذ التوزيع» .

هززت رأسى ورأيت طرفها بارزا من جيب سترته المفتوحة، وقال :

«لا مؤاخذه، هو أنت ضياء، ولا عبد الحكيم؟» .

قلت :

«أنا إبراهيم . ضياء مات من زمان، وعبد الحكيم تعيش أنت» .

هز رأسه ببطء وقال :

«مظبوط . مظبوط » .

وظهرت على وجهه ابتسامة شبه ساخرة، والحقيقة أنها بدت مقبولة لأنها كانت وقورة جداً .

وقال :

«أصلكم كنتم شبه بعض» .

قلت :

«ده صحيح» .

«أحيانًا أفتكر واحد منكم، وبعدين ألاقيه شبه الباقى . علشان كده ما باعرفش هو مين بالظبط اللى أنا أفتكرته » .

قلت :

«هى حاجه تلخبط فعلا» .

وابتسمت .

وفتح هو فمه لكى يقول شيئًا آخر ولكنه لم يفعل. مرت رجفة سريعة فى الانتفاخ الخفيف أسفل عينيه، ورفع يديه عن بطنه وراح يضغطهما ويطقطق مفاصل أصابعه، ونظر فى ساعته وقال:

«طيب عن إذنك».

واستدار.

أنا اتجهت إلى الموقف القريب وجلست فى مؤخرة العربة نصف النقل ورحت أبحث عنه بعينى فى كل مكان حتى لمحته وهو يقف مائلا وقد اتكأ بمرفقه على طاولة محل البقالة الصغير فى الجانب الآخر من الساحة، ومن هنا كان بوسعى أن أرى حجر بنطلونه مدلى بوضوح بين ساقيه من الخلف، ولكننى لم أكن أرى البقال الذى يقف داخل الدكان المعتم.

(أكتوبر ٢٠٠١)

شجون عائلية

كان يكتب قصصًا جادة وإن كانت على قد الحال، كما كان، بسبب من بدلتة الكاملة ونظره الضعيف يبدو محترمًا بطريقة من الطرق، وعندما نلتقى بين الحين والآخر كان يسألنى :

« إنت ليه دايمًا تكدبنى؟ ».

وأنا لم أكن آخذ هذا السؤال على محمل الجد لأننا لم نكن أصدقاء تماما ولا يوجد بيننا من الكلام ما يستوجب التصديق أو التكذيب، لذلك فكرت أن المسألة قد يكون لها علاقة بطبيعة بعض الأماكن التى نلتقى فيها وحالة الانبساط التى نكون عليها، لكن مع إصراره على تكرار نفس السؤال حتى وهو فى وعيه الكامل، أى وهو يشرب شايًا أو قهوة فقط، بدأت أشك أن شيئًا من سوء الفهم هو الذى يدفعه إلى هذا الكلام.

وعندما كنا فى المستودع اقترب منى وهو يحاول السيطرة على الكوب نصف الممتلئ الذى يمسك به وقال :

«شوف. أنت إنسان كويس جدًا، عيبك الوحيد، إنك مش عاوز تصدقنى».

وفى هذه المرة قلت :

«إيه الحكاية ياعم؟ » .

«بقى بذمتك ، مش عارف إيه الحكاية» .

«أبداً والله» .

حينئذ ظهر اللوم واضحاً فى عينيه الضعيفتين .

وعندما غادرت المكان لحقنى ووضع يده فى يدى وقال إننا سوف نشرب فنجان قهوة عنده فى البيت :

«وأنت حا تفهم كل حاجه لوحدك» .

وأفلت يدى أمام الباب ، وتقدمنى وهو يصيح :

«مساء الخير » .

واتجهنا إلى حجرة الجلوس وجلسنا .

على الجدران كانت صور لسعد زغلول ومصطفى النحاس وصورة سألته عن صاحبها . قال وهو يتنهد فى مقعده :

« ده مكرم عبيد » .

ونظر إلى :

«مكرم عبيد فعلا » .

« يا عم مصدقك» .

بعد قليل جاءت السيدة زوجته بصينية الشاى ومالت وضعتها على المنضدة وقالت بصوت مبحوح :

«اتفضل» .

واعتدلت وهى تضم فتحة الروب الكستور على الجزء العارى من صدرها وسألتنى :

«ولا أنت كنت عاوز قهوة؟» .

قلت :

« لأ أبدًا » .

قالت وهى ما زالت واقفة :

«أصل القهوة بعد البيرة بتبقى أحسن من الشاى » .

قلت :

«لا والله أبدًا . كده عال قوى» .

وبعد أن قلت هذا الكلام نظرت إليه ولكنه لم ينظر ناحيتى .

قالت وهى تمر بينى وبين المنضدة :

«على العموم البن موجود » .

واصطدمت ركبتها بفخذى صدمة عفوية ولكنها آلمتنى جدًا ، وقعدت إلى جواره وقالت :

«أصل أنا بصراحة يعنى ، كنت عاوزه أشرب شاى» .

ابتسمت لها وقلت :

«وأنا كمان» .

حينئذ انفجرت ضاحكة لفترة طويلة، وعندما انتهت قال هو :

«طبعًا دي مدام عطيات، الست بتاعتى » .

قلت :

«أهلا وسهلا» .

وكانت مدام عطيات تتزين بعقد زجاجى ثقيل وقرط معدنى رخيص مقشر ومدلى على جانبى وجهها الذى تغطيه البودرة الكثيفة البيضاء، عكس لون رقبتها الداكن قليلا بتفاحة آدم التى كانت بارزة. شعرها خشن ولامع ومفروق من الوسط، كما كانت تضع الأحمر فى خدودها على نحو غير منتظم، وبدت لى فى زينتها امرأة غير معتادة وهى تدخن بشراهة سجاير معوجة تخرجها من العلبة المدعوكة التى تحتفظ بها فى جيب الروب مع الكبريت. وسألتنى :

«أنت كمان بتكتب؟» .

أخبرها بهدوء ودون أن ينظر إليها :

« كاتب مهم جداً، ومن أقربهم إلى نفسى » .

وراح ينقر بأصابعه على ركبته المثنية :

«طبعًا فيه خلافات موجودة، فى الرؤية، فى التناول»، ورمقنى بنظرة سريعة وأضاف :

«لكن ده شىء طبيعى جداً » .

وأنا أمنت على كلامه :

«طبعًا» .

حينئذ قالت :

«يعنى أنت كمان بتقعد فى الأتيلييه ، وفى زهرة البستان ، وبتروح المستودع بتاع البيرة؟ » .

وعندما قلت :

«مش على طول يعنى» .

انفجرت تضحك مرة أخرى بصوت عال وهى تضرب الأرض بإحدى قدميها ثم بدأت تكح .

وقال هو بهدوء :

«اشربى شوية ميه» .

ولكنها لم تفعل .

حاولت الانتهاء من الشاى بأسرع ما يمكن ولكنه كان ساخنا .

وقال :

«مستعجل على إيه يا أخى؟ إحنا لسه حا نسهر» .

وقالت هى ، بصوت مبحوح :

«آه . إحنا لسه حا نسهر » .

وبدأت تضحك مرة أخرى لكن بصعوبة لأن صوتها لم يساعدها ولأنها كانت تضع يدها أمام فمها لتكتم الضحك دون جدوى .

وعندما تمالكت نفسها قالت :

«لا مؤاخذه . أصلى افتكرت حاجة» .

تطلعت إلى قامته النحيلة المطوية داخل المقعد ، ورغم ضيقى الشديد منه ومن زوجته فإننى شعرت بالرثاء الحقيقى ناحيته ، وفكرت أنه لو كان عندهم طلاق ربما كان طلقها لأنها تبدو امرأة غير طبيعية وغير مريحة بأى صورة من الصور .

وعندما قمت لأنصرف لم تتحرك من مكانها أو تلم ركبتيها ، بينما رافقنى هو إلى باب الشقة وسألنى :

«عرفت البيت؟» .

«آه» .

قال :

«أظن بقى ، ما عندكش أى عذر» .

وأنا استغربت هذا الكلام وقلت بينى وبين نفسى :

« عذر إيه وزفت إيه إللى بيتكلم عنه؟» .

وهو أغلق الباب ورائى مع أننى كنت أتوقع نزوله معى حتى يدلنى على أول الطريق .

بعد ذلك كنت ، كلما لمحته ، تجنبته لأن الوضع كان سخيفًا جدًا وغير مفهوم . وكان هو يقول لى ، أحيانًا :

«شوف ، أنا سايبك براحتك خالص» .

وفى أحد الأيام التقينا فى زهرة البستان. كان هو يجلس وراء منضدة على رصيف المقهى وأنا أتحدث مع أحدهم أمام المدخل، وما كدت أنصرف حتى لحقنى ببدلته الكاملة وحقيبته الجلدية القديمة.

أخذنى جانبًا وقال:

«أنت يعنى ما بتسألنيش عن المدام؟».

«مدام مين؟».

«مدام عطيات، مراتى».

كدت أقول:

«وأسألك ليه؟».

عندما همس:

«المدام بقت راجل يا أستاذ».

وعندما ضحكت، ضحك هو الآخر، وعاد إلى مقعده.

مرة، التقينا أمام مبنى الإذاعة والتليفزيون وأخبرنى أنه هجر كتابة القصة واتجه للدراما الإذاعية لأنها سهلة بالنسبة لكتاب القصة المتمكنير أمثالنا.

ومرة، أخبرنى أنه توقف عن الكتابة للإذاعة لأن فيها خطر على موهبة كاتب القصة خصوصًا إذا كانت موهبته حقيقية.

ومرة، كنت أجلس فى ريش برفقة محمد البساطى وجميل عطية إبراهيم، ثم لمحته وهو يشير إلىّ من بعيد أن أقترب، وعندما اتجهت إليه قال:

«تعالى».

وأخذني حتى مبنى محكمة مصر القريبة فى باب الخلق، وأطل برأسه عند ناصية المبنى الكبير وهو يطلب منى أن أختبئ، وقال:

«شايف الراجل إللى هناك ده؟».

كانت مجموعة من الباعة الذين يقفون أمام مدخل المحكمة ويبيعون الأوراق المطلوبة للتقاضى أو ما شابه.

قلت:

«أى راجل؟».

حدد واحداً وقال:

«الراجل إللى فى وسط الشارع».

سألته:

«ماله؟».

قال:

«ما هو ده عطيات».

«عطيات مين؟».

«عطيات مراتى؟».

وأضاف:

«شوف بقى، عاوز تصدق، صدق. مش عاوز، إنت حر».

ثم قال محذراً :

«إوعى تروح هناك» .

قلت :

«ليه؟» .

قال :

«حتعرف إن أنا إللى قلت لك ، وتبقى بايخه» .

إلا أننى تركته ومشيت حتى اقتربت من الرجل .

كان يرتدى جلبابًا قذراً وسترة عسكرية صفراء خالية من الأزرار ويضع على رأسه الحليق طاقية من القماش ، وكان مشغولا بترتيب الأوراق داخل الدوسيه الذى يحمله ، وحين انتبه لوجودى رفع وجهه الذى لوحته الشمس والتقت عينانا ، وسمعته وهو يقول :

« إزيك يا أستاذ إبراهيم؟ » .

لقد كان الرجل هو مدام عطيات فعلا .

وقفت صامتًا .

وهو ابتسم وربت على الدوسيه الممتلئ بالأوراق والذى يحمله تحت إبطه وقال :

« أى خدمة؟ » .

قلت :

«شكراً» .

ومشيت .

وجدته يجلس مختبئًا على البروز الحجرى الناتئ وراء ناصية المبنى .

وقد استقبلنى غاضبًا ، ثم استدار يسبقنى وهو ينفض سرواله من الخلف ويقول :

« علشان لما أقولك أى حاجه بعد كده ، تبقى تصدقنى » .

(يونيو ١٩٩٧)

مع ناقد صديق

صديقى الناقد أفادته دراسته الأكاديمية حتى بات يكتب ويتحدث عن الكتب فى وسائل الإعلام بكلام غاية فى الجدية والفائدة دون أن يقرأها.

معرفتى بهذا الموضوع، ومعرفته أننى أعرف، جمعت بيننا فى رباط إنسانى حميم. والجميل فى هذه الصداقة أن الموضوع هذا، هو أعمق ما يعرفه كل منا عن الآخر. ونحن عندما نترافق داخل محفل أو على منصة، لا بد وأن تلتقى عينانا قبل شروعه فى الكلام، أو فى أثنائه، أو فى نهايته، وحينئذ تأخذنا البهجة كل مأخذ، لا أعرف كيف أبدو حين تأخذنى ولكنى أراه، حين تأخذه، وقد اتخذت ابتسامته الطرية منحى أنثويا بينما هى تتحول حثيثًا إلى ضحكة مكتومة يرتج لها كرشه الملموس ويرتفع معها حاجبه بينما تتسع عيناه بوله عميق لينهيها، الضحكة، وهو يعض على شفته السفلى ويهز وجهه يمينًا ويسارًا فى نوع من التلذذ غير المألوف، ثم تعاوده الرصانة ويميل إلى الميكروفون، وقد أجهد غاية الإجهاد، ليواصل كلامه الذى هو غاية فى الجدية والفائدة عن تلك الكتب التى لم يقرأها.

رأيته قبل شهور فى سهرة تليفزيونية خصصت للحديث عن

العلاقة بين (الكيت كات) كفيلم و(مالك الحزين) كرواية أخذ عنها نص هذا الفيلم.

المذيعة اعتقدت، مع الوقت، أنه يخلط بين (الكيت كات) وفيلم آخر تجهله تمامًا، لذلك راحت تذكره بالوقائع عله ينتبه إلى موضوع السهرة بينما هو سادر فى غيه لا يلوى على شىء، وينسرب مبتسمًا من تلك المآزق العابرة بنعومته المعهودة. هذا عن المذيعة، أما عنى فقد كنت واثقًا أنه يتحدث فعلا عن الرواية التى لم أكتبها.

ما أدهشنى أن العلاقة الخاصة جدًا بيننا لم تشفع لى وتدفعه حتى إلى مجرد إعادة النظر فى منهجه هذا، من أجل خاطرى على الأقل، أنا الذى أعرف سره من ناحية، وتحسبًا للقاء سوف يتم بيننا بعد فعلته هذه من الناحية الأخرى.

المهم أن هذه العلاقة الخاصة جدًا بيننا والتى قامت على المشاركة فى سر لا يعلمه سوانا إلا الله وحده، اكتسبت بمرور الأيام طابعًا روحانيًا جعلتنى لا أعرف فقط أنه لم يقرأ هذا الكتاب أو ذاك لأننى سبق لى وقرأته، ولكننى أصبحت أعرف، أيضًا، أنه لم يقرأ هذا الكتاب الذى يتحدث عنه رغم أننى لم أكن قد قرأته.

صديقى الناقد دخل المستشفى وأجرى عملية جراحية.

وأنا ذهبت لعيادته برفقة آخرين وقد حملت فى يدى باقة ورد صغيرة.

رأيته على ظهره مضمدًا وقد ارتفع بطنه إلى أعلى. ولفت نظرى أن الدولاب المعدنى الصغير الذى يجاور سريره عليه كمية كبيرة من الكتب، وهو ما أن أدرك أننى رأيت الكتب والتقت عينانا حتى أخذتنا البهجة،

كـالعـادة، كل مـأخـذ، ومـا أن بدأ كـرشـه الملمـوس يرتج غبطة حتى ارتفع صراخه ألما وهو يضغط على موضع الجرح ويرفص بساقيه القصيرتين غير قادر على التوقف.

صـديقي الناقـد كـاد يمـوت فـعلا بين دهشة الحضـور لولا مغـادرتي، المتباطئة، لهذه الحجرة.

(ديسمبر ١٩٩٨)

مشهد من المعرض

كانت الساعة قد جاوزت السابعة مساء فى معرض القاهرة الدولى للكتاب.

فى ذلك اليوم الأخير لم أكن قد اشتريت إلا نسخة أخرى من (ألف ليلة وليلة). كانت فى مجلدين كبيرين صادرة من بيروت ومصورة عن طبعة بولاق (١٢٥٢ هجرية).

وضعتها فى كيس من البلاستيك الخفيف وتوكلت.

أثناء سيرى فى أرض المعرض تمزق الكيس من الحواف الصلبة للمجلدين. طويته عليهما وحملته بصعوبة تحت إبطى واتجهت إلى باب الخروج أبحث عن شىء أركبه وأعود إلى البيت، حين لمحنى أحد الأصدقاء من الكتاب وعرض على أن يوصلنى إلى الطريق العام.

كانت المعلومات التى عندى تقول إن الكاتب هذا ممن يعهد إليهم الإشراف على واحدة من نشاطات المعرض مثل إعداد برنامج هذا النشاط واختيار الضيوف والشباب الذين يقومون بالمعاونة النقدية أو التنظيمية كما يقوم بتولى بعض من مسائل الفلوس وخلافه.

فى ذلك الوقت كان يقف عند الحقيبة الخلفية للسيارة وإلى جواره واحد

من النقاد الشباب المشاركين فى هذه الندوات، وعلى سطح الحقيبة كان هناك كيس متين من البلاستيك له مقبضان وبه مجرد كتابين أو ثلاثة.

لفت الكيس نظرى بقوة وأدركت أنه يخص الناقد الشاب لأن الكاتب الآخر كان معروفًا أنه قد يقتنى الكتب ولكنه لا يشتريها.

تراءى لى على الفور أن أقوم بتبديل الكيسين أثناء انهماكهما فى الكلام.

كانا إذن يتحدثان.

وكنت أنا قد أفرغت كيس الناقد الشاب بحركة طبيعية تمامًا كأننى أريد أن ألقى نظرة على ما اشتراه وأنا وأهز رأسى مطمئنًا لهذه الاختيارات الجيدة، كما أخرجت نسختى من (ألف ليلة) لكى أقوم بالمقارنة بين هذه وتلك، وفى اللحظة المناسبة، أعيد الكتب، كل مكان الآخر عن طريق الخطأ، وعفا الله عما سلف.

أثناء هذه التدابير كنت أسمع الحوار التالى..

قال الكاتب وهو يخرج بعض الأوراق:

«بطاقتك الشخصية معاك؟».

ورد الناقد الشاب:

«لأ».

«وبعدين؟ دى أوراق حكومية ولازم تكون مضبوطة».

قال الآخر أنه يذكر نمرتها.

«كده معقول».

وبدأ يملى عليه ما يكتبه . ومال الناقد الشاب على غطاء حقيبة العربة وفى يده الورقة والقلم .

« استلمت أنا الموقع أدناه مبلغًا وقدره» .

وصمت قليلا وأضاف :

«سيب مسافة فاضيه ، بعد وقدره» .

قال الآخر :

«أيوه » .

«سبت مسافه فاضيه؟ » .

«أيوه» .

«اكتب ، من أول السطر (فى هذه اللحظة المناسبة وضعت أنا الكتب كل محل الأخرى) وذلك نظير مشاركتى فى نشاطات . . . خلال المدة من . . . . إلى . . . كتبت؟ » .

«آه» .

«إمضى اسمك ، واكتب التاريخ ورقم البطاقة» .

وألتفت أنا إلى الناحية الأخرى عندما وضع هو يده فى جيبه وأخرج عدة ورقات من فئة العشرة جنيهات ، وراح يعدها . أظنها كانت ، اعتماداً على إحساسى بحركة يده والزمن الذى استغرقه العد ، فى حدود الأربع أو الخمس ورقات .

طواها الناقد الشاب ووضعها فى جيب البنطلون وقال :

«ألف شكر . كل سنة وأنت طيب» .

واعتدل لكى يأخذ كتبه وينصرف ، بينما اتجه الآخر إلى مقدمة العربة فى انتظار ركوبى إلى جواره .

التفت أنا إلى الناقد وأعطيته الكيس الخاص بى ، وأخذت الآخر . تأمله حائراً وبدا عليه التردد مثل واحد لا يريد أن يقول شيئًا يحرج به أحد كتاب الستينيات . أخبرته أن (ألف ليلة) مزقت الكيس لأنها ثقيلة ، وأنا رجل عجوز قد أضيعها ، لذلك بدلتها بكتبه الخفيفة ، وأضفت :

«بجملة الخساير بقى» .

وهو وقف أمامى يضحك ويقول :

«ماشى يا عم أصلان» .

ثم استدار ، وابتعد .

(مارس ١٩٩٩)

لقاء وحيد مع العقاد

ظلّ العقاد يمثل بالنسبة لى حالة من حالات الرعب الذى لا ينتهى، حتى بعد أن قرأت له بعضًا من عمله الكبير دون أن أتحول إلى واحد من قرائه المولعين، ولا الكارهين.

فلقد حدث أننى الآخر لم أحصل إلا على الابتدائية القديمة، ثم كنت أروح وأرجع أمام الأهل والأصدقاء محملا بمزيد من الكتب مما جعلنى معرضًا بين حين وآخر إلى سماع هذه العبارة المؤذية:

«حضرته فاكر نفسه العقاد».

وهكذا تحول الرجل الذى مثل مع طه حسين جناحى الأسطورة التى هيمنت على حياتنا الفكرية والروحية إلى هولة رهيبة لا فضيلة لها إلا الزراية بى. وكان أبى عندما تأتى سيرة العقاد، يقول وهو قاعد على الكنبة يعبث بمسبحته:

«يا باى. ده جبار».

مع أنه ـ رحمه الله ـ لم يكن قد قرأ له حرفًا واحدًا.

ولكن ذلك زمن كان الكتاب يتحولون فيه إلى جمل من المعانى الكبيرة التى تكتسب حياتها المستقلة عن حياة أصحابها والتى تشيع بين الناس

وتؤثر فيهم أكثر مما تؤثر كتاباتهم ذاتها. أذكر أن أحد الأصدقاء، أيام الصبا، أخبرنى أنه قرأ للعقاد فى يوميات كتبها بجريدة (الأخبار) أن من لم يقرأ (مقامات الحريرى) فليس بمتأدب، وجن جنونى بحثًا عن هذه المقامات حتى عثرت عليها بمكتبة عبارة عن دكان صغير بحى الحسين فى طبعة قديمة مجلدة، وتابعت البائع بمزيد من الوجل وهو يعتلى مقعده، فى سترة قديمة على جلباب، لكى يأتى بها من الصندرة، وقضيت شهوراً منكبًا عليها حتى حفظتها عن ظهر قلب وصرت أردد، بحكم العادة، أثناء سعيى بين الناس: «لما اغتربت غارب الاغتراب، وأنأتنى المتربة عن الأحباب، وطوحت بى غوائل الزمن، إلى صنعاء اليمن»... إلى آخر هذا الكلام، وعلى مدى إحدى وأربعين مقامة كاملة، تقريبًا، دون أن يمنحنى ذلك إحساسًا ولو واهيًا أننى صرت متأدبًا، ولا يتبقى فى ذاكرتى منها الآن كلام كثير، بالإضافة إلى ما ذكرت، إلا كلام آخر عن: «تلميذ ونبيذ وجدى حنيذ». ولعل الشىء الذى أورثنى قدراً هائلا من الاستغراب هو أن كل صفحة من صفحات المقامات كانت مقسومة إلى قسمين، وكل كلمة فى القسم الأعلى مرقمة، وأمام نفس الرقم، فى النصف الأسفل، يوجد شرح للمعنى فى كلمات بسيطة وواضحة. وأنا كنت أظن أن أبا القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى صاحب (المقامات) هو الذى قام بذلك، وتساءلت عن السبب الذى جعله لا يكتبها بهذه اللغة الواضحة مباشرة بدلا من كتابتها هكذا، مرة بلغة مستعصية، ثم العودة لكتابتها بلغة ميسرة. إلا أننى علمت، بعد فوات الأوان غالبًا، أن الرجل لم يفعل ذلك وإنما فعله آخرون.

لم أكن رأيت العقاد بطبيعة الحال، ولم أكن عرفت حتى ذلك الحين أى مخلوق آخر رآه، حتى كان يوم من أيام ١٩٦٣ حيث كنت فى زيارة

الصديق والكاتب الراحل ضياء الشرقاوى بشركة الأسمدة التى كان يعمل بها فى عمارة (الإيموبيليا)، وما أن غادرته وتقدمت فى شارع شريف، حتى فوجئت بالعقاد يأتى على الرصيف عينه، وأمامى.

تسمرت فى مكانى.

استوعبته كله دفعة واحدة: القامة المديدة، والبدلة الفاتحة المقلمة، والنظارة، والكوفية الرفيعة الطويلة والطربوش القصير المائل (هل كان يرتدى الطربوش حقًا أم أن خيالى هو الذى يضيف الآن؟).

ومثل كل أسطورة جليلة يمكن لها أن تدب على قدمين، احتل هو الإطار المهيأ له فى روحى احتلالا كاملا، دون زيادة، ولا نقصان. وعندما اقترب وواجهنى، رفعت وجهى ورأيت العينين الصافيتين، ولما عبرنى استدرت، ومشيت وراءه.

تملكنى الإحساس، وأنا أتبعه، أن العقاد لو كان أطول من ذلك، أو أقصر، بإصبع واحدة، لما أمكن له أن يكون العقاد أبدًا.

لم يمر وقت حتى توقف أمام واحدة من المكتبات الصغيرة التى تباعدت مداخلها على رصيف نفس الشارع. لم تكن هناك كتب معروضة، بل أدوات كتابية على أرفف من الزجاج النظيف المعلق. رأيته ينحنى وهو على مبعدة من عتبة المكتبة، بسبب طوله، ويتأمل قلمًا فى علبة مفتوحة على واحد من هذه الأرفف، فعل ذلك لفترة ثم مد يده إلى جيب سترته الداخلى وأخرج قلمه، وانحنى أكثر وهو يمسكه بين يديه، تأمله هو الآخر، وعاد يتأمل القلم المعروض، واستغرق طويلا فى المقارنة بين القلمين.

اقتربت وجلاً وقد ظننته وجد قرينًا لقلمه .

وقفت على بعد خطوتين عن يمينه ، ورأيت القلم المعروض ، ورأيت القلم الذى بين أصابعه ، واستغربت . لم يكن هناك وجه للشبه أو المقارنة ، لا فى الحجم ، ولا فى اللون .

هكذا وقفت ساكنًا أحدق فى الأدوات المعروضة شأن أى زبون آخر ، وشعرت أنه أحس بى دون أن يلتفت . حينئذ ألقى نظرة أخيرة بين القلمين ، وأعاد قلمه إلى جيبه وهو يعتدل ، ويبتعد أمامى متمهلا على الرصيف العريض ، ويستدير هناك مع ناصية المبنى الكبير ، ويختفى .

مضت شهور قليلة ، ومات .

(أغسطس ١٩٨٩)

أهمية أن تكون عالميًا

عاد صديقنا الكاتب من سفرة ثقافية احتك خلالها بكتاب من جنسيات مختلفة ليصرح فور وصوله بأنه قرر، عقب هذا الاحتكاك، التوقف نهائيًا عن مواصلة كل أنواع المشاكل والمماحكات التى قامت قبل السفر بينه وبين بعض الزملاء. لقد جلس وقال إنه مضطر إلى ذلك، وأوضح:

«أنا فعلاً، بقيت كاتب عالمى».

وأنا لم أحضر لحظة هذا التصريح المؤثر الذى تم تناوله على نطاق واسع ولكن أخبرنى به صديق مشترك يعتد بكلامه فى مثل هذه الأمور.

والذى حدث أننى كنت أشرب الشاى مع زكريا فى حجرتى بمكتب (الحياة) عندما جاء هذا الصديق المشترك وجلس معنا متململا، الأمر الذى جعلنى أدرك أنه ينتظر انصراف زكريا لأن لديه ما يقوله، ولكن زكريا لم يكن بالرجل الذى يمكن أبدًا أن ينصرف، الأمر الذى دفع صاحبنا للإفصاح عما جاء من أجله.

هكذا عرفنا حكاية صديقنا العائد والتصريح الذى صدر عنه.

والحقيقة أنه تكلم فى دهشة يخامرها شىء من الأسى حتى أننا غافلنا زكريا وتبادلنا نظرة فيها الكثير من الوجوم:

«ما العمل الآن؟».

كنت أقدر مشاعره، ومشاعرى طبعًا، فها هو رفيق المشوار الطويل يخلفنا ويذهب وحيداً إلى العالمية ويعود. ومن أسف أنه لم يكن لدى عمل محدد يمكن أن أقوم به حيال هذا الأمر. ولكن زكريا الذى اتضح أنه لا يمكن مغافلته أبدًا، راح يهون من شأن (العالمية) ويقول إنه، حتى اللحظة، لا يعرف لها معنى محدداً، ثم ادعى أنها ليست معياراً لأية قيمة، وظهر على وجهه المهيأ شيء من الغضب، وطلبنا دوراً آخر من الشاى.

من ناحيتى لم أكن أشاطر زكريا، بينى وبين نفسى، مثل هذه الآراء القاطعة. (العالمية) لها وقعها الذى لا يمكن إنكاره، كما أنها اقترنت إعلاميا ببعض الأحوال والأشخاص. عندنا الممثل العالمى والمطرب الشاب الذى فاز بجائزة انطلقت بالأغنية العربية إلى العالمية بعد طول انتظار وهكذا. بل إننى ما زلت أذكر، عقب عودة منتخبنا القومى من مسابقة كأس العالم حيث أبلى بلاء حسنًا وإن خرج من الأدوار التمهيدية، كيف انتابنا جميعًا سرور كبير رافقته حالة من الاحتفاء الإعلامى الذى كان تعبيراً عن إحساس عميق بالمسئولية التى حصلت لنا فى ذلك الوقت، وكيف أننى فى واحد من اللقاءات التليفزيونية العديدة التى تضاعفت ليل نهار، جلست لمتابعة المذيعة الجميلة مع حارس مرمى فريقنا القومى أيامها، عندما تحدثت هى كما تتحدث المذيعات، وتحدث هو كما يليق بحارس للمرمى، أى وهو يقوم بعملية إحماء واجبة، وينط نطا لطيفًا فى (الترييننج سوت) لتفاجئه أخيرا، وتفاجئنى، بالسؤال الحاسم:

«طيب يا كابتن، بعدما وصلتم للعالمية، إيه الموقف دلوقت؟».

ولقد بهت الكابتن الذى يبدو أنه كان غافلاً عن حقيقة أنه عائد لتوه من عند العالمية .

زاغت نظراته وتوقف عن الإحماء (نصحنى أحد الأصدقاء أن أبدل التسخين بالإحماء وأنا فضلت أن نرضيه ونرضى أنفسنا) وراح ، الحارس ، يتطلع فى أرجاء الملعب الخالى حيث يجرى اللقاء ، إلا أنه استطاع ، بعد لأى ، أن يفتح فمه ويقول :

«هو طبعًا . لازم يكون فيه وضع تانى» .

والمذيعة أمنت على هذا (الوضع) الثانى ، وبان عليها الوجل .

وانتهى البرنامج .

(العالمية) إذن ، يجب أن تؤخذ بما تستحقه .

ولكن زكريا قال ، مرة أخرى ، ثم ما شأن هذه الترجمة؟ ألا نعرف ذلك الميل القديم والشائع لدى عدد من دور النشر الأجنبية نحو اختيار تلك الأعمال ذات المواصفات التى ترضى وتؤكد تصوراتهم عنا ، وهى تصورات غير دقيقة دائمًا . زكريا قال إن (العالمية) مضمون إنسانى يظل على مدى الأيام مثلما نجده لدى كبار نعرفهم بالاسم ، وأشار فى عجالة إلى (بيتهوفن) و(شكسبير) و(بيكاسو) وغيرهم ، وصاح فى صديقنا المشترك متسائلا : هل يظن أن آلافًا عدة من رواية مترجمة لن تهتم بها أكثر من مراكز الدراسات الشرقية وأقسام علم اجتماع الأدب والتعامل معها لأغراض ليست أدبية تماما هى التى سوف تجعله كاتبًا عالميًا؟ أم أنها حفنة الفرنكات (استبدلت باليورو الآن) أو الدولارات أم ماذا بالضبط ؟ إن الأعمال العربية ، يا عزيزى ، التى ترجمت بسبب من قيمتها الخالصة يمكن

أن تعد على أصابع اليدين أوالقدمين فى أفضل الأحوال (قال ذلك وهو يلعب بقدم ساقه الموضوعة على الأخرى) ، ثم استثنى أعمال (محفوظ) لأسبابها النوبلية المعروفة.

مرة أخرى لم أكن أشاطر زكريا، بينى وبين نفسى، مثل هذا الرأى، فهو من ناحية لا يعرف أى لغة أجنبية مما يجعله يتحدث بمثل هذه الثقة عن الأعمال المترجمة، كما أن المسألة لدينا، من ناحية أخرى، لا تتعلق بقيمة ما يترجم من أعمالنا ولكن بتقديرنا نحن لهذه الترجمة فى حد ذاتها. وتقدير رجل مترجم، أو امرأة، لنفسه لا يتساوى أبدًا وتقدير رجل غير مترجم لنفسه. وأنا ما زلت أذكر تلك الندوة المغلقة التى جمعتنى وأربعة من الروائيين فى مقر إحدى الجرائد العربية وكيف أننا ما أن جلسنا حول المائدة الصغيرة وتم الانتهاء من إعداد أجهزة التسجيل وأغلقت الأبواب حتى أخرج أحدهم من جيبه نسخة مترجمة من روايته الوحيدة ووضعها أمامنا فى منتصف المائدة. لم تكن المشكلة أنه لا توجد علاقة بين موضوع الندوة وهذا الذى جرى، ولكن المشكلة، بالنسبة لى على الأقل كانت فى تلك اللغة الغريبة التى كتبت على هذا الغلاف الأمر الذى أفقدنى التركيز طيلة الندوة دون معرفة إن كان ما أراه ينتمى إلى اللغة (الفارسية) أو (الروسية)، كما أن وجودها الغامض هذا جعل الكلام يرتج، أحيانًا على معظم الألسنة.

زكريا، الذى انتهى حالا من التأمل قال ليس الطريق إلى العالمية ولكنه الطريق إلى المهزلة. دليله على ذلك أن عددًا من كتابنا وكاتباتنا بدأ يقوم بتوفير الجهد على المترجمين والناشرين بكتابة أعمالهم على ضوء من المواصفات المطلوبة، وهى مواصفات مؤسفة، فضلا عن أنها بسبب من طبيعة دوافعها لا يمكن أن تنتج عملا جيدًا. نعم. زكريا أكد أن المؤشرات

البينات تؤكد أن مسألة تجهيز روايات حسب الطلب بدأت تتخلى عن حرجها وتندفع لتشكل تياراً روائيًا جديدا لن يلبث أن يصير صرعة حقيقية.

زكريا قال:

الأيام بيننا، وسوف نرى.

(يناير ١٩٩٨)

عن ماركيز ونزار قبانى وأمادو

أرادت المجلة العربية المعروفة أن تقدم تحقيقًا متميزًا فى مناسبة غياب شاعرنا الكبير نزار قبانى

بعد مشاورات عاجلة رُئِىَ أن من الضرورى جدًا الاتصال بأكبر الكتاب العالميين الأحياء ممن يمكن لشهاداتهم أن تتناسب وهذا الحدث الجلل، واستقر الأمر على أن يتم الاتصال فورًا (بجارسيًا ماركيز) وكذلك الشهير جدًا (جورج أمادو).

أمكن الحصول على أرقام هواتفهم، إلا أن المحرر لم يراع فروق التوقيت، هكذا تم الاتصال بمسكن (ماركيز) فى السادسة صباحًا.

استيقظ سكرتير ماركيز من نومه وتناول سماعة الهاتف.

قال المحرر:

«نحن مجلة كذا، ونريد الحديث مع الكاتب الكبير جارسيا ماركيز».

وقال السكرتير:

«كيف؟ إنه نائم الآن ولا نستطيع إيقاظه».

قال المحرر عبارة إنجليزية معناها:

«ولكن نزار قبانى، تعيشون أنتم».

«ماذا تعنون بأن نعيش نحن؟».

«نعنى أن نزار قبانى قد مات».

السكرتير شعر بأن شيئًا خطيرا حدث، وقام بإيقاظ ماركيز الذى أمسك بالسماعة:

«من؟».

«نحن مجلة كذا.. نحدثكم من العاصمة كذا...».

«ماذا تريدون؟».

«نريد أن نبلغك أن نزار قبانى قد مات».

«هذا شىء مؤسف.. من هو مستر كبانى؟».

«إنه نزار قبانى، الشاعر العربى المشهور».

«عن ماذا كان يكتب؟».

«كان يكتب عن المرأة والحب... كما أن له قصائد سياسية مهمة جدًا».

قال ماركيز:

«ولكن كل الشعراء يكتبون عن المرأة والحب، والسياسة أيضًا».

«هذا صحيح. ولكن هذا أكبر شاعر عربى معاصر».

«ما دام الأمر كذلك، أرجو أن تبلغ تعازى إلى السيدة زوجته».

«الحقيقة أن زوجته توفيت فى حادث أليم» .

«هذا شىء مؤسف . هل عنده أبناء؟» .

«عنده» .

«إذن بلغهم تعازى» .

«كنا نريد منك شهادة قصيرة حول هذا الأمر» .

«ولكنها السادسة صباحًا الآن ، والحقيقة أنك أقلقتنى» .

«نحن آسفون» .

«لا عليك» .

ووضع السماعة .

حينئذ قام المحرر بوضع علامة إكس أمام اسم ماركيز ، وقام بالاتصال بمنزل جورج أمادو :

«هل كاتبنا الكبير موجود» .

ردت السيدة زوجته :

«لا . من يتحدث؟» .

« نحن مجلة . . . نحدثكم من العاصمة . . . » .

«ماذا تريدون فى هذا الوقت؟» .

« نريد أن نأخذ شهادة من الكاتب الكبير لأن نزار قبانى مات» .

«لكن أمادو ليس موجودًا الآن» .

«وأين يمكننا الاتصال به؟».

«لا يمكنكم ذلك بأى حال».

«لماذا؟».

«لأنه بالعناية المركزة».

«ومتى سوف يخرج؟».

«لا أعتقد فى مسألة خروجه. لأنه سوف يموت خلال يومين أو ثلاثة».

«نحن آسفون».

«لا عليك».

ووضعت السماعة.

(مايو ١٩٩٨)

مساء قديم

«ليت أسماء تعرف
أن أباها صعد
لم يمت..
هل يموت الذى "يحيى"
كأن الحياة أبد؟»

أمل دنقل

اتصلت بى المخرجة الصديقة عطيات الأبنودى لتخبرنى بأن أسماء ابنة صديقنا الكبير الراحل يحيى الطاهر عبد الله سوف تكمل العشرين فى اليوم الأول من العام ١٩٩٧ ، وأنها، عطيات، سوف تحتفل بها، ثم تقيم حفلا آخر فى اليوم الثالث من الشهر ذاته يبدأ فى الثانية عشرة ظهراً وحتى منتصف الليل، من أجل أصدقاء يحيى القدامى وأبناء جيله.

وعادت بى الذاكرة إلى واحدة من سهرات الصيف الأخيرة التى جمعتنى والعزيزين أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله.

كان أمل قد تركنا فى منزلى بالكيت كات وذهب بدعوى أنه سوف يقترض شيئًا يفى بتكاليف السهرة من صديقنا محسن رسام الكاريكاتير

الذى كان يسكن بمدينة العمال بإمبابة ثم يعود. إلا أن أمل ذهب، وكما توقعت، لم يعد. وبينما نحن فى انتظاره اقترح يحيى على أن نقوم بإنشاء تنظيم سرى يكون هدفه الأساسى الاستيلاء على السلطة.

كانت البلد فى ذلك الوقت ممتلئة بالتنظيمات السرية، إلا أن يحيى لم يكن راضيًا عنها وله عليها تحفظات عدة، وكنت من ناحيتى راغبًا فى الاستيلاء على أى سلطة دون المساهمة فى تأسيس تنظيم سرى أو تأسيس أى شىء آخر. ولم يكن أمامى إلا أن أعطى الموضوع حقه من التفكر دون أن يبدو على أى رد فعل واضح سواء برفض هذا العرض الجديد أو قبوله. كنت أعرف أن يحيى يعرف أننى أقل منه قدرة على الاقتحام وأكثر تحفظًا (معرفته تلك جعلته يبالغ دائمًا فيما يعرضه على من اقتراحات) إلا أن ما يظن فىّ كان صحيحًا بطبيعة الحال. كان مقبلا، حادًا، معتزًا بموهبته الكبيرة. وفى الوقت الذى لم أكن أجرؤ مثلا على قراءة قصة لى فى أى جمع من الناس، كان هو يحفظ قصصه عن ظهر قلب ويرويها فى كل مكان وعلى أى ناس، حتى على أولئك الذين كان يلتقيهم على نحو عابر فى مقهى عوض الله بالكيت كات حيث كان يزورنى، والذين، لدهشتى، تعلقوا به ولم يكفوا أبدًا عن سؤالى عنه. كان شبيها بجهاز لا يكف عن الإرسال إلا قليلا بينما أنا مستغرق فى حال من الاستقبال معظم الوقت، كما كان يمتلك ما أظنها أفضل لغة قص بين أبناء جيلنا كله. لم أعرف أبدًا كيف جاء بها، وما زلت حتى الآن أشعر بأننى قادر على أن أمد طرف لسانى وأتذوق طعم كل كلمة من كلماته على حدة.

كان يحيى يعرف حدودى الشخصية إذن، ولما كنت أحد شواغله، فقد كان ميالا، بين وقت وآخر، إلى وضعى أمام بعض المسئوليات ذات الطابع القومى المحرجة التى لم أكن أملك حيالها سوى الاعتذار، الأمر الذى كان

يكشف مدى تهاونى ويمنحه بعض النقاط التى ترضيه، رضاء صامتًا (كنت ألمح ذلك فى عينيه الذكيتين) إلا أننى كنت أعرف كيف أقتص وأخلص نفسى دون أن أحرمه تمامًا هذه المتعة، معللا نفسى بأنها واحدة من المتع التى لا بد وأنها زائلة.

مرة، كنا عائدين من مبنى الإذاعة والتليفزيون، وعرجنا نشرب زجاجتين من البيرة فى مشرب قديم كان على ناصية ٢٦ يوليو وماسبيرو، قبل أن نتجه سيرًا إلى الكيت كات لكى يوصلنى ويتجه بعدها إلى مدينة العمال. عندما وصلنا وقفنا نتفق على موعدنا القادم، وطلب منى أن لا ألتفت ورائى. قال إن عنصرًا من أمن الدولة تتبعنا من التليفزيون وجلس خلفنا فى المشرب وهو واقف ورائى الآن يراقبنا، وحدق فى عينى وقال:

«خليك عادى، وما تبصش وراك أبدًا».

لم أستطع منع نفسى من النظر، والتفت على الفور.

كان الرجل الواقف عند سور جامع خالد بن الوليد هو الأوسطى جمعه العجلاتى الذى أعرفه جيدا هو وزوجته وأولاده باعتبار أن دكانه كان حجرة مفتوحة فى مسكنه القريب من مسكنى. ويحيى استنكر التفاتى إلى الوراء وقال:

« يا حبيبى يا خويا، إللى عملته ده غلط».

أخبرته إننى:

«ما قدرتش».

وسألته ماذا نفعل الآن؟

هز دماغه وقال:

«بعدين، بعدين. المهم دلوقت إن كل واحد يمشى من ناحيه».

وفكر وقال:

«اطلع أنت من شارع السوق، وأنا حاطلع من على البحر».

وكان هذا هو طريقنا الطبيعى الذى سوف نسير فيه دون أن يلاحقنا أحد.

عندما التقينا بعد ذلك أخبرنى أن عنصر أمن الدولة تبعه حتى بيت محسن الرسام ولكنه استطاع أن يضلله، وسألنى:

«مالك؟»

قلت:

«أبدًا».

ابتسم فى وجهى ابتسامته الماكرة وقال:

«لأ. أنت من ساعة ما عرفت إن المباحث بتراقبنا وأنت تعبان».

حاولت من ناحيتى أن أبدو تعبان فعلا. قال بلهجة جادة:

«كلنا فى الأول بنخاف. المهم أنك تكون حريص جدًا».

وأنا شعرت بالقلق وهززت رأسى موافقًا.

لقد استطاع يحيى فى سنواته الأخيرة أن يضيق المسافة القائمة بين حال الدنيا وحال المخيلة، حتى انتهى به الأمر إلى خلق حالة فنية مدهشة صارت هى عالمه فعلا. لم يعد بوسع أحد منا أن يعرف أين ينتهى ما هو واقعى عنده وأين يبدأ ما هو متخيل. أمل كان يعرف (أنا واثق من ذلك بسبب من تلك النظرة التى كان يرمقنى بها من وراء يحيى).

في قلب هذه الحالة (المسافة القائمة) تزوج يحيى وأنجب أسماء التى راح يتجول بها، وهى على كتفه أغلب الوقت، بين المقاهى والندوات والبيوت والحانات، وهى الحالة التى كتب فيها درته الباقية (حكايات الأمير) وصادق فيها الباحثة الأجنبية ورافقها فى السيارة ولقى مصرعه.

كان فى ذروة الحيوية والتألق.

وأنا أراه الآن مع هذه الكلمات.

أصيب يحيى بكسر فى قاع الجمجمة، وكانت أسماء برفقته، طفلة فى الرابعة تقريبًا، جلست إلى جواره وهو ينزف حتى مات.

وأنا رأيت أسماء طالبة الآداب قبل عام.

زهرة برية، جسورة وهيفاء،

ولمحت يحيى يطل على من عينيها الجميلتين.

(يونيه ١٩٩٧)

تأهيل مواطن

يتحدث المذيع الشاب متأنقًا وهو يدارى ابتسامته الساخرة، يداريها بأدب ليس نهائيًا لأنه حريص على وصولها إلى جمهور المشاهدين، وأنا منهم.

يقول محدثا المغنى الشعبى شعبان عبد الرحيم :

«لكن أنت قلت إنك حريص على لبس هدوم، تكون لون قماش الأنتريه».

وشعبان، الذى جلس مثل طفل كبير فى ثياب ملونة، يفكر قليلا، ثم يقول :

«والله، هى ظروف . يعنى شوف»، ويمد كم سترته إلى مسند المقعد مضاهيًا الألوان، ولأن سترته تجمع كل الألوان، لا يلبث أن يعثر على لون مشترك بين الاثنين .

ويقول المذيع الشاب :

«إنت قاصد كده طبعًا؟».

وشعبان يقول إنه، فى الحقيقة، يرسل زوجته إلى الوكالة لتشترى له القماش، وهو يعطيه لترزى يعرفه ويطلب منه أن يفصله .

«وبتقول لها على الألوان اللى تشتريها؟» .

يقول إنه يطلب منها أن تأتى بألوان غير الألوان التى اشترتها الأسبوع، أو الشهر الماضى، مثلا .

«إشمعنى؟» .

وهو يقول :

«ما هو ده ضرورى برضه» .

«ضررى ليه؟» .

يشرح، بطيبة خاطر واضحة، كيف أن المطرب لازم يلبس هدوم، لها ألوان وتفصيلة غير التى يلبسها المعازيم فى الفرح .

«ليه يعنى؟» .

شعبان يفكر ويقول :

«يمكن علشان يبقى باين بين الناس» .

سؤال :

«إنت بتحب تاكل رنجه، مش كده؟» .

«آه، أنا باكل رنجه» .

« إيه السبب؟» .

«أبداً، باكلها بس» .

«إيه السبب يعنى، مفيدة للصوت ولا إيه؟» .

وشعبان يقول :

«مفيدة آه» .

ثم يضيف مترددًا :

«أنا سمعت إنها مفيدة. ومادام الحاجه مفيدة، ممكن البنى آدم ياكلها؟» .

«بتحبها قوى؟» .

يقول إنهم يستسهلونها. فى أى وقت فيه زنقة ولا يوجد أكل :

« روح يا واد لخالتك أم (وقال اسما للبائعة لا أذكره) وهات لنا رنجه من عندها. الواد يروح يجيب، ويرجع على طول» .

«يعنى ليل ونهار قاعد تاكل رنجه؟» .

«لأ. بالليل باكل ممبار» .

«يا سلام؟» .

«آه. أنا باحب الممبار» .

ويقول إنه بعد أن تعرف بعادل إمام، يذهب إليه دائما. وأن عادل عندما يراه يصفق للجرسون ويطلب منه أن يأتى له بالممبار :

«على طول» .

ويهز رأسه بثقة :

«أنا كييف منبار» .

«كويس قوى. لكن أنت بتقبض كام فى الفرح؟ ».

يقول شعبان إنه يقبض:

«ساعات ثلاثة ، وساعات خمسة».

«يعنى كام بالظبط؟».

«هى تبع الظروف يعنى. وكمان المشوار البعيد، غير القريب»، ويضيف أن عمره ما تكلم مع أحد عن الفلوس:

«معايا واحد، هو إللى بيتفق».

«طيب وإيه حكاية إسرائيل دى، إنت بتكرهها؟».

«آه. أنا باكرها».

«علشان كده عملت أغنية أنا باكره إسرائيل؟».

«عملتها آه».

«حصلت معاك إزاى دى؟»

يقول شعبان إنه كان يغنى عند أحد الأمراء وسمعها وهو يغنى. وأعطاها للمؤلف الذى يكتب له أغانيه، وعمل منها أغنية وهو غناها:

«وعنها يا باشا».

«عنها إيه بقى؟».

«الفضائيات، والسى إن إن. الدنيا كلها اتقلبت، وشارون دلوقت عمال يلف فى الحوارى، ويقول للعيال إن شعبان بيشتمنى».

وتزداد النظرة الساخرة فى عينى المذيع الشاب، فلم تعد هناك، فى الحقيقة، حاجة لإخفائها. ويقول:

«سمعنا إنك بتشتغل دلوقت فى السينما».

«آه. فيه فيلم مع الأستاذ داود عبد السيد».

« إللى هو مواطن ومخبر وحرامى».

«صح».

«وأنت الحرامى. مش كده؟»

يسكت شعبان قليلا.

وأسمعه يقول:

«هو أنا مش حرامى. أنا واحد عادى، لكن باقوم بدور حرامى».

«متشكرين يا شعبان، إن شاء الله نجيبك تانى».

«متشكر قوى».

(إبريل ٢٠٠١)

عن الإغفاء وفضائله

يود كاتب هذه السطور أن يؤكد أنه لا يعرف شيئًا عن حال البلد الإندونيسي موضوع هذه الفرجة لأنه ليس منه، وهذا أمر مقبول من رجل لا يعرف شيئًا عن حال البلد العربي الذي يعيش فيه، مع أنه منه.

والحال هذه حصلت معي عندما لاحظت في أثناء جلوسي للفرجة أمام الشاشة الصغيرة، كيف أن الكاميرا تتوقف بإلحاح عند صورة ذلك الرجل الذي يغفو هانئًا في اجتماع رسمي غير مبال بما يدور حوله من إجراءات وقد انفرج وجهه ومالت رأسه إلى جانب.

أنا تصورت، في البداية، أنه أمر شبيه بما يحدث عندنا عندما تمسك الكاميرا بأحد نواب الشعب وهو نائم في البرلمان، أو عندما تضبط جماعة منهم وهي تلاحق وزيرا أو أكثر لتدس في جيبه أو يده، إن كانت خالية، أوراقًا شتى من المظالم المكتوبة، أو عندما تتوقف، الكاميرا نفسها، عند جماعة أخرى من نواب البرلمان نفسه، وهي تتحدث مع بعضها بعضًا وتضحك في مقاعدها الخشبية علانية بينما يقوم رئيس الحكومة باستعراض الموازنة العامة للدولة مثلا. على رغم أنني تصورت ذلك كله، فلقد رأيت في تركيز الكاميرا على هذا الرجل الغافي، ولوقت أطول مما ينبغي، أمرًا يخلو من اللياقة فعلا.

فى ما بعد ذلك بقليل، لم تلبث حيرتى أن تزايدت إذ لاحظت أن كل فضائية أتفرج عليها تلاحق الرجل نفسه فى أوقات مختلفة وأيام مطردة، ولما كان من المستبعد أن تكون هذه واحدة من حالات الاضطهاد الفضائى مثلا، وإن كانت محتملة، فقد بدأت أصغى لما يقال بعدما كنت تعودت الفرجة على الصور الملونة من دون أذن صاغية. وتشاء الظروف أننى، ما أن أعطيت هذه الأذن الصاغية، حتى تبين لى أن الرجل الذى أشاهد هو رئيس الدولة نفسه. حينئذ تتبعت الأمر بمزيد من اليقظة ولاحظت أن الرئيس هذا يأتى الاجتماع بمعونة كريمة تأخذ بمرفقيه وتضبطه جيدا فى مقعده ثم تنصرف.

بعد ذلك تناثر الكلام الذى فهمت منه أن برلمان تلك الدولة ينتوى طرح الثقة بهذا الرئيس لأنه مدان فى فضائح مالية كبيرة، وأن ذلك سوف يترتب عليه فقدانه لمنصبه، وأنه من ناحيته يرفض، بهزات ملموسة من رأسه، هذا الطرح للثقة، كما يرفض التنازل عن المنصب بأى شكل من الأشكال، ويهدد بإعلان حالة الطوارئ فى البلاد جميعها، الأمر الذى سوف يؤدى إلى حرب أهلية مؤكدة. هو عرض فقط أن يتنازل عن جانب من سلطاته لنائبته، والنائبة رفضت تماما هذا الحل المقترح.

وعادت الظروف، وإن كانت مختلفة عن الظروف الأولى، وشاءت لى أن ألمحه وهو يفيق من غفوته بأن فتح عينه القريبة، وقال ما معناه إن تنازله عن موقعه سوف يتسبب فى احتجاجات ومشاكل كبيرة جدا لا يمكن أن تحمد عقباها لأن الشعب متمسك به من أجل خير الوطن، وأنا، فعلا، لم أصدقه، بل وجدتنى مشغولا بالتفكير فى حل لتلك المشكلة التى يعيشها البلد، ورأيت، بعد هذا التفكير، أن كل ما عليهم عمله هو أن يكفوا عن إرسال أى شخص لكى يوقظه من النوم، وإذا كان مستيقظا، لأى سبب،

فلا يأخذن أحد بيده أو مرفقه ليعاونه على مغادرة السرير والمجيء به لكى يجلس فى مقعده.

حينئذ تحدث له ورطة ويظل حبيس غرفته، وتضيع منه سلطاته، ثم يطويه النسيان.

إلا أن وقتًا قصيراً مضى، المسافة فقط بين الصالة والمطبخ حيث أتيت بكوب الشاى وعدت لأرى، على الشاشة الملونة نفسها، عشرات الآلاف من أبناء هذا الشعب الغلابة يملئون الشوارع وهم يتسلحون بالعصى والأسلحة البيض، يتسلقون أسوار البرلمان ويخلعونها متمسكين بالرئيس رافضين تماما طرح الثقة به أو إثارة مسألة تجاوزاته المالية الرهيبة فى حقهم، ثم أننى، مع حركة الكاميرا، رأيت فى خلفية المشهد، آلافا أخرى فى حال من الفرار العظيم إلى حيثما أسعفتهم أقدامهم نحو ما تيسر من ملاذ أو آخر، بينما قوات مكافحة الشغب تلاحقهم بالدروع الحديدية والعصى الغليظة اللامعة.

شخصيا، لست ممن يأخذون اندفاعات العامة هذه على عواهنها أبدا، فأنا أعرفهم بالقدر الذى يتاح فيه للرجل أن يعرف نفسه، كما أننى لم أكف فى أى وقت من الأوقات المناسبة وغير المناسبة عن النظر بعين الاعتبار إلى بعض ما تردد من آراء على ألسنة عدد من عتاة المفكرين عن هذه الجموع الشعبية عموما وكيف أنها فى اندفاعها، تتمتع بعجز أصيل عن حيازة أى رأى غير ما تلقنه ويستهويها، وتصبح الغاية واحدة والكل فى واحد، سواء كان هذا الكل فى وضع المقبل على خلع الأسوار، أو فى حال المدبر عنها كما سبق ورأينا بأعيننا على الشاشة الصغيرة قبل قليل.

والغريب أن هذه الحال الجماعية إذا ما انتهت لوجدت، فى رأى العتاة

من المفكرين أنفسهم، أن كل مواطن فقد ما كان اكتسبه من أفكار، بل إنك إذا تمكنت، والهوجة فى عزها، من الإمساك بتلابيب أى واحد وعزلته جانبًا واستفسرته، بينك وبينه، عن طبيعة المسألة، لوجدته قد نسى ما كان عليه تماما، وعاد سيرته الأولى التى تعرفها. وغنى عن القول إن الأفكار التى يكتسبها الشخص وهو فى اجتماعه مع الآخرين تكون عادة أحسن من أفكاره الأصلية أو أسوأ منها. وهذا كله مما يدخل فى باب الشعوب وحكمتها. ولما كانت حكمة الشعوب أعمق دائمًا من أى تساؤل فقد اكتفيت بالفرجة قانعًا، وإن ظل سؤال وحيد يراودنى، سؤال مشروع لأنه يتعلق بالفرد وليس الجماعة، سؤال حول طبيعة تلك المتعة الرائعة، واللذة النادرة التى يستشعرها الواحد، عندما يقيض له أن يحكم بلداً كبيراً، وهو نائم.

(نوفمبر ٢٠٠١)

شجر الظل

انتبهت فجأة إلى أن زمنا مضى دون أن يطرق باب الحجرة الضيقة التى أجلس بداخلها .

غادرت مكانى إلى الصالة الخارجية وسألت صبرى فقال :

«اختفى والله يا أستاذ» .

«اختفى؟» .

«آه» .

هكذا عدت إلى حجرتى وقد نالنى إحساس حقيقى بالوهن ، ذلك أن اختفاء صديقنا البستانى الغلبان (علمت أن اسمه محمود) وضع حدا لرغبتى القديمة أن تكون لى شجرة ظل جديدة وعفية بدلا من شجرتى العليلة تلك .

والحقيقة أن شجر الظل فى هذا المكان له ـ شأن كل شىء آخر ـ حكاية نوجزها فيما يلى :

قبل سنوات طويلة كنت أتردد على مكتب «الحياة» هذا لنشر قصصى القصيرة أو لصرف مكافآتها . وكانت تدهشنى تلك الأشجار الجميلة الموزعة فى أرجاء المكان ، والتى تزدهر فى أصصها الخزفية البيضاء أو

النحاسية المنقوشة، خصوصا أننى أحببت شجر الظل دائما، دون سبب معقول، وحاولت مرارا أن احتفظ بشجرة منه داخل مسكنى، إلا أنها كانت تتطلب نظاما فى الرى لم أعرف أبدا كيف أتقنه، فضلا عن إدراكى العميق أن علينا جميعا أن نستقر فى أماكننا داخل المسكن الضيق من دون حركة حتى لا نصطدم بها، هى الرقيقة التى لا تحتمل، سواء فى الذهاب أو فى الإياب.

وفى العام ١٩٩٢ دعانى الصديق عمرو عبد السميع للالتحاق بفريق العمل داخل المكتب. لم يمر وقت طويل حتى أدركت أنه صاحب الفضل فى حال الازدهار والحيوية الجميلة التى تعيشها هذه الشجيرات. كان يتابعها بشكل يومى فى أركانها المتباعدة سواء هنا أو هناك. . يتابع الرعاية الكاملة من جانب صديقنا المتخصص الغلبان الذى استأجره بمكافأة شهرية للعناية بها، انتظام عملية الرى ودقتها، عمليات الإحلال الدائمة لصنوف أخرى إذا ما أصاب الوهن إحداها (حاولت جاهدا أن أحفظ أسماءها من دون جدوى، معظمها ينتهى، على أية حال، بحرف السين، بوطس مثلا، أو ما هو أكثر تعقيدا) وهكذا.

فى بداية التحاقى بالعمل كنت أجلس فى صالة التحرير مع بقية الزملاء، والشجيرات.

وقد استطاع عمرو قبل انتقاله إلى لندن ليحل محله وحيد عبد المجيد فى إدارة المكتب، أن يهيىء لى حجرة منفردة كانت لأحد الزملاء من العاملين. هى فى الأصل شرفة تم إغلاقها بجدار زجاجى، صغيرة، إلا أنها كافية لاحتواء ضجيج الزائرين ومناقشاتهم، كما أن جدارها الزجاجى كان، ولا يزال، يتيح لى فرصة التطلع إلى حديقة مبنى البنك المجاور، أخبرنى العم

كامل زهيرى (شيخ الحارة المعتمد لمدينة القاهرة) أنه كان مقرا للماريشال ديجول أيام النضال من أجل فرنسا الحرة، وهناك، على أية حال، لافتة رخامية عند مدخل البنك تسجل ذلك، كما يتيح لى، الجدار الزجاجى نفسه، التطلع إلى عمارات الشمس وإيزيس وأوزوريس وغيرها من بنايات الحى الذى عرف بحى القصور والسفارات. أتطلع، وأستعيد مشاعر ليس بوسع أحد غيرى أن يستعيدها، نعم، ذلك أنه لا توجد فى هذه المنطقة بناية لم أدخلها، ولا شقة لم أطرق بابها، فلقد حدث أننى، قبل أقل من أربعين عاما بدأت حياتى العملية، أو غير العملية فى الحقيقة، هنا، حيث كنت ساعى البريد الرسمى لهذه المنطقة.

فى هذا المبنى الذى تقع فيه جريدة «الحياة» أى الرقم ١ شارع أمريكا اللاتينية (أيامها كان اسمه الوالدة باشا نسبة إلى والدة الخديو إسماعيل)، هذا المبنى الذى أستخدم مصعده الخشبى الصغير الذى استخدمته قبل أربعين عاما، أتذكر الرجل الذى كان يستأثر بالنصيب الأكبر من المطبوعات والرسائل. يفتح الباب، يواجهنى بالروب الحرير الثمين، والوجه الحليق، والشارب النحيل المحفوف والابتسامة الأنيقة الودودة، وصوت الموسيقى الهادئة كأنها العطر المحبوس داخل الشقة الفسيحة شبه المعتمة، وتدهشنى، حتى اللحظة، تلك الأرفف التى تواجهنى وقد امتلأت بالمجلدات الصغيرة المصفوفة، والكتابة الدقيقة المذهبة فى كعوبها الجلدية الداكنة. هو بشر فارس الذى لم أكن أعرفه. هكذا، بوسعى أن أتطلع دائما عبر الجدار الزجاجى لحجرتى فى هذا المكان وأتذكر. كانت قلعة الأسمنت المسماة بالسفارة الأمريكية هذه بيتا هادئا وحديقة خضراء، وفى البناية التى تواجهها، بناية إيزيس حيث يعيش محمود أمين العالم الآن، تخايلنى دائما تلك المراهقة الصغيرة، من دون ملامح واضحة سوى عينين، هناك فى فتحة الباب والجو شبه المعتم، تتأملنى بجرأة والرسالة بين يديها:

«أنت بتشتغل ليه كده؟».

كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، وهى لاحظت حرجى، وصمتى، وقالت مستنكرة:

«أنت شكلك حلو (مضى على ذلك مائة عام طبعا) سيب الشغل ده، واشتغل شغل تانى».

أخذت الخطاب، وأغلقت الباب.

المهم، الحجرة لم يكن ينقصها إلا شجيرة ظل، لا غير.

لم يعد عمرو عبد السميع موجودا. جاء بعده وحيد عبد المجيد، ولدينا الآن العم إحسان بكر. إلا أننى، على أية حال، استطعت أن أعثر على شجيرة متعبة، هى فرع من «البوطس» يلتف حول عصا طويلة من البلاستيك المكسو بطبقة كثيفة من اللوف الأحمر الذى تم تحزيمه بخيوط رفيعة شفافة، فى خزفية بيضاء كنت صادفتها مرة على الناصية المفضية إلى دورة المياه، ورافقت صبرى وهو يحملها من أجلى، خلسة، إلى ركن حجرتى.

أيامها كانت شبه مزدهرة، أما الآن، فلم يعد يدل على بقائها حية إلا ورقة وحيدة فى فرعها الملتف، لا تزيد على حجم قشرة اللب، ولكنها خضراء.

اتفقت مع صبرى، عندما يأتون بمجموعة جديدة، أن يخصنى بواحدة بدلا منها.. واحدة أكثر حيوية، وشبابا.

ما جرى بعد ذلك لم يكن مفهوما.

ألمح شـجـيـرة جديدة فى أحد الأركـان، وألوم صـبـرى لأنهم اشـتـروا شجيرات ولـم يخصونى بواحدة. وصبرى ينكر. وأشير إلى الشجيرة:

«وإيه دى؟».

«دى بلاستيك يا أستاذ».

«بلاستيك؟».

«آه».

فى البداية لم أفهم. إلا أن شجيرة جديدة تحتل ركنا آخر. اقتربت منها وأمسكت ورقة أثنيها، بلاستيك.

صرت أقوم بجولات تفقدية فى أرجاء المكتب الكبير. الشجيرة الذابلة تختفى وتحل بدلها واحدة من البلاستيك. ثم انتهى الأمر إلى بقاء ثلاث شـجيـرات حية متبـاعـدة فى أمـاكنهـا. مـا أن أصل المكتب حتى أذهب للاطمئنان على أحوالها. بعضها يذبل وأتوقع أن البلاستيك سوف يحتل مكانها إلا أننى أجد شجيرات حية تحتل مكانها وأستغرب، وألوم صبرى لأنهم اشتروا شجيرات ولم يخصونى بواحدة منها، وصبرى ينكر هذا، وأشير إلى الشجيرات:

«وإيه ده؟».

«ده محمود هو اللى اشتراها».

«محمود مين؟».

«محمود الجناينى».

«طيب وإيه يعنى؟ ما يشترى لى واحدة».

«أصله بيشتريها على حسابه» .

وأفهم منه، بعد لأى، أن محمودا، عندما لاحظ غزو البلاستيك الذى لا يتطلب بستانيا للعناية به، أدرك أنه سوف يفقد عمله لا محالة، وأنه لم يعد هناك إلا شجيرات ثلاث يرتبط بها عيشه. ومحمود لم يجد أمامه، درءًا لهذا الخطر الداهم إلا أن يبادر ويشترى هو من جيبه، بدلاً من الشجيرات التى تذبل، شجيرات أخرى يحملها، بهدوء، إلى المكتب، هكذا يمكنه المرور ثلاث مرات فى الأسبوع لرعايتها، ومرة فى الشهر ليصرف مكافأته.

مع الوقت لم يعد الأمر مجزيا. ما يتقاضاه، يشترى به.

وأنتبه أنا، فجأة، إلى أن البلاستيك صار هو السيد، وأن زمنا مضى دون أن يطرق باب الحجرة الضيقة التى أجلس بداخلها.

وأغادر مكانى إلى الصالة الخارجية وأسأل صبرى، ويقول:

«اختفى والله يا أستاذ» .

«اختفى؟» .

«آه» .

هكذا عدت إلى حجرتى وقد نالنى ما يشبه الوهن.

جلست أستعيد ما تيسر من هذه المسألة.

أسمع طرقا خفيفا على الباب.

أقول:

«ادخل» .

وأنا أتوقع واحدا أو واحدة يحمل قصة أو مقالة، أو أى أحد آخر يريد أن يتحدث أو يتفرج على حينًا ثم ينصرف. عندما يكون هو، ينفتح الباب الأكروديونى قليلا، ويطل على بوجهه الوديع الباسم. يشير بوجل صامت ناحية شجيرة الظل الصغيرة العليلة فى ركن حجرتى. أهز رأسى موافقا، وأراه يدخل مرتبكا فى ثيابه القديمة المعتنى بها قدر الإمكان. فى يده إبريق وفوطة قديمة ناعمة. إنه يجثو أمام الشجيرة. إبريقه كبير وفى لون الفضة الغائمة، به مكبس يدفعه مرات عدة ليمتص الهواء وهو موضوع على «الموكيت» المفروش، ثم يفرد الورقة المتربة الخضراء على يسراه، ويرفع الإبريق من مقبضه الواسع، ولما يضغط على مقبض داخلى آخر، يندفع الماء خيوطا دقيقة من مصفاة مدورة فى نهاية العنق الممدود، يركن الإبريق ويمسح الورقة بالفوطة الناعمة، يقلبها، ويكرر الرش، والمسح، (كان يفعل ذلك مع كل ورقة، فى كل شجيرة من شجيرات الظل المتباعدة داخل حجرات وقاعات وممرات المكتب الكبير فى قلب العاصمة).

فى كل مرة تدهشنى قسوة يديه فى علاقتها مع أوراق الشجيرة الواهنة. ما أن ألمسها أنا حتى تقع، وهو يفردها، رغما عنها، ينظفها، ويقلبها بلا وجل فيلتوى عنقها فى يده ويدعكها، وبينما أتوقع نهايتها، فى كل لحظة، تنفلت هى من يده، نظيفة ومزدهرة.

إنه ينتهى. يعتدل ويتطلع حزينًا إلى شجيرتى العليلة التى تساقط الكثير من ورقها، ومن دون أن يسألنى، يمد يده ويمسك الخيط الحرير المزدوج، يسحبه بعناية حتى ترتفع شرائح ستارة البلاستيك الرقيقة، عندما يطمئن إلى أن ضوء النهار صار يغمر الشجيرة تماما، يثبت الخيط فى ظهر المقعد، وينصرف.

(مايو ٢٠٠١)

عشاء أخير مع البياتى

أخبرنى بهدوئه المعتاد :

«هذى فقاعات» .

وتطلع أمامه .

كنا نجلس فى مقهى «الفينيق» فى عمان .

وكان المقصود بالتعليق هو مشروع «كتاب فى جريدة» والقائمين عليه ، قبل أن يصبح عضوا فى هيئته الاستشارية .

وهو بعد أن صمت طويلا ، أوضح لى أن الفقاعات هى التى :

«لا تلبث أن تنفثئ» .

وأنا ، كعادتى معه ، أمنت على كلامه صامتًا .

كان ذلك فى الأيام الأخيرة من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧ ، وكنت بالأمس قد انتهيت من اللقاء الذى حضرته فى (دارة الفنون) الفاتنة ، تلبية لدعوة مؤسسة عبد الحميد شومان الثقافية .

ما أن غادرت مقعدى وتحركت برفقة عدد من الأصدقاء فى رعاية صديقنا الشاعر إبراهيم نصر الله حتى فوجئت أن شاعرنا الكبير ، الذى

لم يكن بين الحضور، يتقدم إلى معانقًا. سألنى عن مكان إقامتى وأخبرنى أنه سوف يمر بالفندق فى الخامسة مساء:

«نتعشى، وكذا».

وتلفت حوله متمتما بما يشبه الدعوة لأقرب الواقفين، إلياس فركوح وفخرى صالح غالبًا، ثم استدار وانصرف. ولقد زاد تأثرى عندما أخبرنى نصر الله أن البياتى لا يحضر أبدا هذه الندوات.

أتذكر ذلك وأشعر كم هى حزينة تلك الأيام التى نفتقد فيها «أبا على». ولأن استجابتنا الفكاهية لما كان يفعل لم تغب أبدا، فقد عشقته، بالقطع، أنا وغيرى ممن رافقوه فى أيامه القاهرية لأسباب كثيرة بينها، ربما، نفس الأسباب التى أخذها عليه الكثيرون، أعنى مناكفاته، وعمليات التشهير المدهشة التى لم ينج منها أحد، وابتكاراته الجارحة التى تملأ القلب غبطة بسبب من جدتها، وأسلوبه الخاص جداً فى عملها. المهم أننى لا أظن أحدا ممن يعرفون طاقتنا المحدودة يتوقع منى أن أتحدث عن البياتى بوصفه شاعرا، فلقد فعل ذلك من هم أكثر قدرة منى وسوف يفعلون، ما دام الشعر والشعراء، أكتفى بأن أقول بأنه أول كاتب عربى كبير يبدى اهتماما بعملى منذ بداياتى الأولى، بالإضافة لأدونيس الذى قدمنى لقراء مجلته (مواقف) عندما صدرها بواحدة من قصصى الأولى (بندول من نحاس) أرسلها له الكاتب الصديق محمود الريماوى بمبادرة منه، كما كان البياتى هو أول من سعى متطوعا كى تتم دعوتى أول مرة لأرى بلدا آخر غير مصر، وأن عنوان مجموعتى القصصية الأولى «بحيرة المساء» هو شطرة استعرتها من إحدى قصائده، وأنه، عندما تفاقمت الحالة العامة مطالع السبعينيات، ولاحظ ما أنا عليه، كان حريصا على أن يختلى بى لكى

يخبرنى بأن على الواحد أن يعيش ويراقب ما شاء، شرط أن يحرص على بقاء مسافة بينه وبين الواقع، مسافة يأمن معها أن لا يتكسر قلبه. وأنا لا أنسى هذه الوصية لأنها، شأن الوصايا التى لا تنسى، قيلت فى وقتها تماما، لم يقلل من قيمتها أن القلب انكسر فعلا.

عندما نزلت فى الخامسة إلى بهو الفندق وجدته يجلس وحيدا فى انتظارى.

عبرنا الطريق إلى فندق آخر حيث أراد أن يشترى جريدة «أخبار الأدب» من مكتبته التى تقع فى الطابق الأرضى.

صعدنا درجات قليلة، ولاحظت أنه مد ذراعه يتكئ علىّ كى يفعل ذلك، ويبدو أنه الآخر قد لاحظ أننى لاحظت، لأنه توقف مفكرا، وتطلع إلى الدرجات القليلة، الجافة تحت أقدامنا، وقال موضحًا، إن الأمطار جعلتها زلقة.

أخذنا تاكسى إلى مقهى «الفينيق» حيث جلسنا إلى مائدة تتوسط المكان.

بدا مثقلا ومشغولا إلا قليلا. طلب من أحد العاملين أن يأخذ عنوانى لكى يرسلوا لى الجريدة التى تصدر باسم المكان (وهى تصلنى حتى الآن)، وأخرج من جيبه زجاجة دواء، وهمس لى وقد عاودته ابتسامته المعهودة أن الأردنيين الصيادلة، يفتحون الزجاجات، ويسرقون الحبات، ثم يغلقونها ببراعة شديدة.

قال، تأكيدًا لما يحدث:

«كانت تكفينى أسبوعًا. الآن، تكفينى يومين، أو ثلاثة».

ونادى صبيًا يعمل بالمقهى، أعطاه النشرة بعد أن أخرجها من علبة الدواء، وورقة من فئة الدنانير الخمسة وطلب منه أن يشترى واحدة جديدة. بعد فترة، عاد الولد ومعه علبة الدواء وديناران ورقيان وبعض القطع المعدنية. شكره البياتى وتركه ينصرف، ثم عاد ليهمس لى، وهو يعرض أمامى ما تبقى من الدنانير، أن هناك نصف دينار ورقى آخر كان يجب أن يكون موجودًا، ثم التفت، ونادى الولد. حدثه فى عجالة عن نصف دينار ناقص، وقبل أن يرد الولد، قال البياتى:

«لا. أنت لا غبار عليك، الرجل هناك هو المسئول، أطلب منه أن يعطيك ورقة».

وعندما عاد الولد بالفاتورة، وبدون نصف الدينار الناقص، لاحظت أن البياتى لم يهتم بالنظر إليها، تركها مطوية واكتفى بأن علق:

«إنهم يرفعون الأسعار، دون أن يأخذوا رأينا».

فى الثامنة تمامًا، أخذنا تاكسى آخر واتجهنا إلى مطعم اسمه «الياسمين». كان حريصًا على نسخته من «أخبار الأدب». طواها بعناية ووضعها فى جيب سترته.

كنا نجلس متجاورين، وعندما كانوا يضعون الصحون أمامنا، طلب منهم أن يعدوها لأربعة، لأن هناك آخرين، ثم أنه طلب منضدة منفردة للشراب، وهم أحضروا واحدة ذات طابقين. أشار بيده إلى المكان الذى يريدها فيه. وضعوها على يسارى بحيث شكلت زاوية قائمة مع مائدة الطعام.

كانت استجاباتهم السريعة والدقيقة تعكس لشخصه قدرا كبيرا من

المحبة والاحترام، وكنت أعرف أن أحدًا غيرنا لن يكون موجودًا، ذلك أن الكلمات المبهمة التى قالها فى «دارة الفنون» لم تكن أبدًا بالدعوة الواضحة. هكذا جلسنا نشرب دائما ونتحدث أحيانا والوقت يمضى دون أن يحضر أحد. فى هذه الأثناء كان يدخل واحد أو آخر يرفع يده وصوته محييا:

«أبا على».

أو:

«أستاذنا الكبير».

وكان هو يرد بكلمات غير مسموعة ولا عناية فيها، وبعد غياب الزبون فى الداخل أو الخارج كان يخبرنى:

«هذا جاسوس».

أو:

«هذا مدسوس».

أو:

«يظن نفسه كاتبًا، وكذا».

كما أنه ردد أبياتا لا أذكرها للأسف رغم حرصى على ترديدها فى سرى عدة مرات حتى لا أنساها لأنها كانت جميلة جدا رغم مباشرتها، مؤثرة ودالة على حالنا العربى البائس، قال إنها للأخطل الصغير، ثم تطلع إلى ولا أعرف ما الذى رآه فى وجهى وجعله يقول موضحًا:

«هذا شاعر عربى، معروف».

الأمر الذى جعلنى أؤكد أن الأخطل الصغير شاعر عربى معروف فعلاً.

كان وقت طويل قد مضى عندما عبث فى جيبه وأخرج مفكرة صغيرة وأعطى رقم هاتف الياس فركوح للرجل الذى يقوم على خدمتنا وطلب منه أن يتصل به.

ذهب الرجل وعاد ليقول إنهم أخبروه فى البيت أن الأستاذ إلياس ليس موجوداً، ذهب لزيارة شقيقته.

هز البياتى رأسه. أعاد المفكرة إلى جيبه وقال:

«فركوح موجود بالبيت».

ومال على أذنى. أسر لى أن:

«الأردنيون، يخشون زوجاتهم».

وطلب الطعام:

عندما انتهينا كان الليل قد انتصف أو زاد، وطلب فاتورة الحساب.

جاءت الفاتورة، وألقى عليها نظرة سريعة وهى مازالت فى يد الرجل. كانت هناك مجموعة من الأرقام، وقال بهدوء:

«هذى ثلاثة، مو خمسة».

وقبل أن ينطق الرجل، رفع هو يده:

«لا. أنت، لا غبار عليك».

وأشار بيده إلى بعيد، طالبا منه أن يذهب، للناس الذين هناك.

ابتعد الرجل .

وكنت أراه من مكانى وهو يشعل سيجارة ويسترخى فى زاوية داخلية والفاتورة فى يده . وما أن انتهى من التدخين حتى عاد ومد يده بالفاتورة ، أخذها البياتى وألقى نظرة سريعة على نفس الحساب القديم ، ودفعه راضيا ، كما منح الرجل بقشيشا طيبا . وفى الوقت الذى جلسناه بعد دفع الحساب ، كان الرجل يذهب ويجىء أمامنا وهو يعلن عن تذمره فى كلمات مخنوقة .

فى القاهرة ، كان إبراهيم منصور يؤكد لى أنه ، البياتى ، يستدين من «فلفل» ، جرسون مقهى «ريش» لكى يسدد حسابه وحساب الأصدقاء ، وكان إبراهيم منصور أقربنا إلى قلب البياتى ، وكان البياتى يقدره جيدا فى حضوره ، ويقول عنه فى غيابه ، إن إبراهيم هذا :

«مجرد لص مكتبات» .

وفى تلك الأيام الصعبة ، ومهما كان عدد من يجلسون إلى مائدته ، لم يكن البياتى يسمح لأحد أبداً أن يضع يده فى جيبه لكى يسدد حتى الحساب عن نفسه .

قبل أن ننصرف ، رأيته يحصى نقوده كلها ، ويستبقى فى يده دينارين . لم يكن متأثراً رغم كثرة ما تناولناه . قال فجأة :

«فركوح ، شخص جيد» .

والتفت إلى . كان حريصاً أن أصدقه .

واستوقفنا تاكسى .

شرح للسائق أنه سوف يذهب به أولا إلى منزله، وحدد له المكان، بعد ذلك سوف يذهب بى إلى فندقى، وحدد له المكان، وسأله عن الأجرة. السائق قال إنه يريد أربعة دنانير، والبياتى قال:

«دينارين».

ووافق الرجل، وركبنا.

اتجهنا إلى منطقة هادئة، إلا أنها بدت خالية، وموحشة.

توقفت السيارة، وهبطنا.

ضمنى إلى صدره وعانقنى فى صمت، وعندما استدار، منحنيًا، لمحت جريدة (أخبار الأدب) مطوية فى جيبه، من الجنب.

هكذا ابتعد وحيدًا، وراح فى العتمة.

(أغسطس ١٩٩٩)

يوسف إدريس.. وداعًا

(١)

أينما وليت،

ثمة وجه للحزن،

ودعوة للغضب.

أينما وليت، ثمة وجه للوطن.

(٢)

صباح السبت،

الثالث عشر عن أغسطس (آب) عام ١٩٩١،

وبينما العربة التى تقل الوفد المصرى تغادر (البيضا) بالجبل الأخضر، وتندفع عبر غابات الصنوبر وأشجار التفاح على ارتفاع مئات الأقدام من سطح البحر، وعلى مدى مائتى كيلو من بنغازى التى نتجه إليها، امتدت يد السائق تعبث بزر المذياع حتى تمهل المؤشر عند محطة تذيع مجموعة من الأخبار الخفيفة التى تتخللها فقرات سريعة من الموسيقى الراقصة.

كنا نتحدث ونمرح،

وانتبهت قليلاً على صوت المذيعة وهى تقول،

إن أولى هذه المجموعات كان اسمها (أرخص ليالى) .

وقد صدرت عام ١٩٥٤ .

أنا لم أتوجس شراً بما سمعت،

فصاحبنا حاضر دائما، والصوت النسائى لم تتغير نبرته المرحة، وهو ينتقل عبر الموسيقى من خبر إلى آخر. ومع اللحن المميز لنهاية البرنامج، كنا نواصل الحديث، عندما مال السائق الأقرب إلى المذياع، والذى تابع البرنامج من أوله، والتفت إلينا بجانب وجهه وهو يتابع الطريق،

«هذا الكاتب يوسف إدريس،

توفاه الله» .

اختلط صوته الأجش بالصوت المنغم الناعم،

«إذاعة الشرق الأوسط،

من القاهرة» .

(٣)

ويسألونك فلا تدرى ما تقول .

تكتشف فجأة أن يوسف هذا لا يلائمه الرثاء،

وأن كل حديث عن عمله الذى منحنا إياه ،

حديث معاد .

تلك حقيقة أكبر سطوعا من أن تكون بحاجة إلى برهان ،

منذ ارتفع صوته قبل أربعين عامًا معبرًا عن كل من لا صوت له فى هذا الوطن .

لقد فتح أفقًا .

وكان مثالاً عبقريًا على سرد الحكايا التى أفصحت عن دلالاتها الجارحة بتلقائية مذهلة .

ذلك هو ميراثنا الثمين ،

ولن يضيع .

ولكن إدريس لم يكن ذلك الحكاء العظيم فقط ،

لقد كان حالة ثقافية كاملة ، قوامها الكبرياء ،

والمناكفة .

كان رمزًا لزمن ،

بكل طموحاته وخيبات آماله ، بكل إنجازاته .

وكل خطاياه .

وفى كل الأحوال ،

كان نوبة الصحيان التى لا تهدأ ،

تدعوك لليقظة، فى الصباح،

وفى انتصاف الليالى.

(٤)

مثل هذه الحكايا، التى تشابه ظواهر الطبيعة وتقلبات الفصول، عندما تنقضى لا نرثيها، بل نرثى أنفسنا.

(٥)

هاهى الثمار الغالية تخبو، تتساقط.

قسمات جميلة تغيب عن وجه الوطن،

كان يوسف إدريس بينها هو طابع الحسن المميز على خد هذا الوجه النحيل، العليل،

الباقى.

(سبتمبر ١٩٩٩)

عم نجيب.. كل سنة وأنت طيب

سنوات يا عم نجيب لم نشد فيها على يدك .

سنوات لم ننعم فيها بجلستنا ، وضحكتك الجميلة المبهجة .

إلا أنك ، كما تعلم ، فى القلب دائمًا .

كيف لا ووجودك بيننا يعنى أننا ما زلنا شبابا رغم اشتعال الرءوس التى حان قطافها ، والجيل الذى بات مهدودا؟

أنت هنا يا عم نجيب فالدنيا إذن ما زالت بخير ، وطيبة .

الناس هنا فى حارة محمد عباس حيث أعيش فرحون بميلادك التسعين ، خاصة الست أم عبده التى أطمئنها عليكم دائما . وهى تسألنى بين عقد وآخر :

«هو أنت يا خويا بتشوف سى نجيب؟» .

وأنا أخبرها :

«يوماتى على الله» .

«والنبى تبقى تسلم لنا عليه» .

«من عينيه» .

«تسلم عينيك» .

والست أم عبده، كما لا بد وأنك لاحظت، حالة خاصة بين أهالى المنطقة. فلقد حدث أنها وضعت عبد الرحمن، آخر أولادها، يوم حصولكم على جائزة نوبل بالضبط، وهى تحسب عمر الولد على هذا الأساس. وكثيرا ما رأيتها تضع يدها على قرعته وتقول :

«الولد ده اتولد يوم سى نجيب محفوظ ما أخد الجايزه بتاعة نوبل» .

وأنا، من ناحيتى، أتطلع إلى هيئة الولد الزرية ولا أراه ملائمًا أبدا ولكنها، كما تعلم، مسألة أرزاق لا أكثر ولا أقل. لذلك لا أريدك أن تشغل بالك بهذه المفارقة. ما يستوجب عنايتك هو أن الست أم عبده صارت تسلك باعتبارها تمت إليكم بصلة من القربى قوية، وبما أننى أعرفكم فقد اعتبرتنى أمت للعائلة بصلة ما وإن تكن بعيدة.

والست أم عبده، إن كنت لا تعلم، هى زوجة الأسطى عطيه الذى يسكن تحتنا، والولد عبد الرحمن هذا الذى وضعته يوم حصولكم على نوبل هو مولودها الخامس أو السادس تقريبا.

وقد نزلت زوجتى يومها وهى تحمل ما تيسر لكى تقوم بواجب الجيرة فى مثل هذه الأحوال، بينما جلست أنا أمام التليفزيون المفتوح حيث كانت الدنيا مقلوبة بسبب فوزكم. والخلق يعبرون عن سعادتهم الطاغية ويبدون رأيهم فى الموضوع.

لقد بدوت لى دائما، أنت، مثل واحد من هؤلاء الرجال الذين

يجلسون وراء موائدهم الخشبية المتداعية أمام دور المحاكم ومكاتب السجل المدنى يحررون المظالم ويعكفون على حفر الأختام النحاسية لعامة الناس الذين لا يعرفون كيف يبوحون أو يكتبون. ظللت تفعل ذلك أمام المجمع الحكومى الكبير بميدان التحرير على مدى نصف قرن أو يزيد وأنت تضع المنديل عازلاً بين رقبتك وياقة القميص. فجأة، رأيت أنا فيما يرى الجالس، هذا المجمع وهو ينهار عليكم دفعة واحدة، ثم لمحتك، حمدا لله، وأنت تنهض سالما دهشا بين الأنقاض، تنفض التراب عن نفسك، وتبحث عن أختامك النحاسية الخام، أقلامك، أدوات الحفر الصلبة، وكيس نقودك الصغير، لتجد نفسك محاصرا بمئات الأسئلة المنطوقة بكل لسان، بينما أحالت آلات التصوير العالم من حولك إلى كرنفال هائل من الأضواء والألوان والغبار.

كان ذلك شيئا واضحا حقا حتى صعدت زوجتى من زيارتها وراحت تقص على ما حدث فى الطابق الأسفل.

كانت الست أم عبده تنام على السرير نصف نومة. مولودها الجديد (هو عبد الرحمن الذى صار صبيًا الآن) إلى جوارها، وحماتها العجوز عند قدميها. وعلى الكنبة جلس لفيف من نساء الحارة ونفر من الأولاد والبنات. كانوا بدورهم يشاهدون التليفزيون، يسمعون حديث الجائزة، ويشاهدونك مغتبطا وكذلك الزحمة.

وعندما ذهبت البنت سماح وعادت من المطبخ بأكواب الحلبة المطحونة قالت الست أم عبده لزوجتى:

«تفضلى يا أم هشام. عقبا لعوضك».

ثم التفتت إلى حماتها العجوز، والدة الأسطى عطية، وأخبرتها أن زوج أم هشام (لا تعنى أحدا غيرى) يكتب هو الآخر فى الكتب والجرائد وساعات يطلع فى التليفزيون ونشوفه. والعجوز قالت إنها سمعت ذلك فى إحدى الأيام، ثم عرفتنى بعد ذلك من شعرى المنكوش وشاربى الكبير عندما رأتنى أحمل الكتب وأطلع على السلم. يجب على أن أقول الآن بأن هذه العجوز بالذات لم تكن غريبة على أبدا، فلقد صادفتها فعلا أكثر من مرة وهى تصعد السلم على أربع. هذه المرأة قالت مخاطبة زوجتى:

«قولى لى يا أختى، هى الجايزه اللى كسبها سى محفوظ، تطلع كام؟».

زوجتى أخبرتها أنها، يمكن، مليون جنيه.

والعجوز وضعت كوب الحلبة جانبا ثم ضربت بيدها على صدرها وقالت:

«يا مصيبتى».

قالت زوجتى:

«طبعا».

وتهيأت للانصراف.

إلا أن العجوز عادت تسألها:

«إنما الراجل ده، ما يديش جوزك حاجه من الفلوس دى؟».

وهذه ردت عليها، باعتبارها تعرف رأيى فى هذه المسألة:

« لا طبعا . يديله ليه؟ » .

والمرأة التى لم تكن تعرف من نظام العمل إلا تلك المقاولات الصغيرة التى يقوم بها ابنها الأسطى مع صبيان مهنة النقاشة التى يظن أنه يجيدها ، رجعت تقول :

«الله . مش هو الأسطى بتاعهم؟ » .

وهنا تدخل أحد حفدتها مقاطعا (علمت أن هذا الولد بالذات حاصل على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية) وهو قال :

«أسطى إيه يا ستى؟ » .

وهى استدركت :

«الرئيس بتاعهم يعنى» .

ولكن الولد أوضح لها أن هؤلاء الناس شغلهم غير شغلنا ، وأن كل واحد منهم يعمل لحسابه فقط .

قالت زوجتى إن المرأة سكتت وإن لم تسلم بالأمر الواضح .

هذا ما جرى بالضبط ، وما حاولت طول الوقت أن أنقله لك .

وقد جاءت فرصة عندما تلقيت الدعوة من رئاسة الجمهورية لحضور الحفل الذى أقيم لتكريمك بالقصر الجمهورى ، لقد وجدتنى أثناء وقوفى بين علية القوم أفكر فى الست أم عبده التى تسكن تحتنا وزوجها الأسطى عطية ووالدته العجوز التى تصعد السلالم على أربع ، ولعلك تذكر أننى انحنيت عليك وقبلتك ، ولعلك تذكر أيضا أننى تمهلت عند أذنك طويلا

لكى أحكى لك ، إلا أن قـلادة النيل التى كـانت تطوق عنقك حـالت دون تحقيق ما انتويت .

لم يكن الظرف مناسبا . وقد فت ذلك ، قليلا ، فى عضدى .

والآن ، ها هى المناسـبـة الطيـبـة تأتى لكى أضـعك فى الصـورة قـدر الإمكان ، ولكى أقول لك :

كل سنة وأنت طيب .

الناس كلهم ،

وخصوصًا أم عبده ،

بتسلم عليك .

(ديسمبر ٢٠٠١)

«جاك حسون» و«خلوة الغلبان»

قال :

«أنا جاك . . جاك حسون» .

لم يكن الاسم يعنى لى أى شىء . قلت :

«أهلاً» .

كنا فى بيت الكتاب الفرنسيين حيث استضافونا مساء اليوم الأول من وصولنا : الراحلة لطيفة الزيات وبهاء طاهر ومحمد البساطي وجمال الغيطاني وسلوى بكر وأحمد عبد المعطى حجازى ومحمد عفيفى مطر وعبد المنعم رمضان ونبيل نعوم وإبراهيم عبد المجيد ، وكانت هناك مائدة رئيسية ممتدة ازدحمت بالمأكولات الخفيفة الملونة وزجاجات النبيذ الداكنة وراءها مجموعة من الفتيات الجميلات ، بينما تفرقنا نحن حول طاولات صغيرة ، ومعنا أعداد من الرجال والنساء الذين يكلموننا ونكلمهم من دون أن يعرفوننا غالبا ، أو نعرفهم .

كان الرجل «حسون» الذى يجاورنى يقوم ويقعد ويملأ لى الكوب كلما فرغ ويدفعنى بكتفه ويقول إن سعادته اليوم كبيرة جدًا ، ثم صاح :

«أنا مصرى» .

التفت إليه ولاحظت وجهه الطفولي وملامحه المريحة الطيبة . وسألنى :

«حضرتك منين فى مصر ؟» .

أخبرته أننى من منطقة «الكيت كات» فى «إمبابه» .

قال :

«أنا من خلوة الغلبان» .

«خلوة الغلبان؟» .

«طبعًا» .

وسكت .

أدهشنى الاسم .

كدت أفيق مما أنا فيه ، ولكننى انتهيت إلى ضرورة البدء ، فى أقرب فرصة ممكنة ، بكتابة رواية أسميها «خلوة الغلبان» . وسألته عن مكانها فقال أنها قريبة من المنصورة ، وأخبرنى أنه بعد غياب حوالى أربعين عامًا عاد إليها ، ورآها .

«خلوة الغلبان؟» .

قال :

«تمام كده» .

وراح يحكى كيف أنهم ، عندما غادروا مصر ، كان فى السادسة عشرة من عمره (على ما أذكر) وأن شقيقته كانت فى الرابعة . أخبرنى كيف أن أباه

طلب منه ، عندما يموت ، أن يأتي بحفنة تراب من مصر وينثرها على قبره . وفى شيء من الأسى قال ، دون أن تختفى ابتسامته ، إنه لم يلحق ، ثم اتسعت هذه الابتسامة وهو يضيف أنه استطاع أن يلحق أمه ، عندما ماتت ، ونثر التراب الذى أحضره من مصر على قبرها .

«الكلام ده إمتى» .

قال :

«من سنتين» ،

وصاح :

«بعد أربعين سنة» .

أرادت شقيقته أن ترى البيت الذى ولدت فيه ، أخذها وعاد إلى مصر سائحًا . سافر إلى المنصورة وسأل عن (خلوة الغلبان) فدلوه إليها ، وهناك راح يبحث عن بيتهم القديم ، كان يعرفه من وجود خرابة مجاورة له ، القرية تغيرت ، لكن البيت كان موجوداً . أخبرنى أن الخرابة كانت كما هى ، وأنه رأى القضبان التى كان يطل من ورائها وهو صغير ، ليتابع ظهر أبيه وهو يبتعد فى طريقه إلى العمل حتى يختفى (كان يعمل قراضًا للتذاكر فى مصلحة السكة الحديد) ، وأنه عاد وشقيقته ، بعدما رأت البيت الذى ولدت فيه ، إلى باريس مرة أخرى ، وضرب بيده على المائدة وانتابته حالة من الهياج الحقيقى وصاح :

«مصر . مصر الجميلة» .

وملأ كوبى وقال إن إسرائيل هى التى أفسدت كل شيء :

«أقول لك هذا الكلام مع أننى يهودى».

فوجئت وأصابنى ما يشبه الوجل وأفقت تمامًا.

ظللت صامتًا فى مكانى حتى غافلته وملت على أقرب أذن صادفتنى وهمست:

«على فكرة، الراجل إللى قاعد جنبى، يهودى».

وجاءنى صوت صاحب الأذن:

«وإيه يعنى؟ كل الناس إللى معانا هنا، يهود».

رحت أعيد النظر فى الرجال والنساء من حولى وخيل إلى أنهم يتأملوننى فعلا أكثر مما يجب. ورأيت أن أغير موقعى. استأذنت من حسون وذهبت لكى أرى نهاية محاولة التمرد التى قام بها محمد البساطى بعد ما وضعته تحت وصايتى فور نزولنا أرض المطار، باعتبار أن زيارته الأولى لباريس لا يمكن أن تتساوى وزيارتى الثانية لها. فقد حدث أن أحد الزملاء أخذه من جوارى لكى يقدمه إلى الكاتبة المصرية المقيمة فى فرنسا أندريه شديد، وقام البساطى فرحًا كمن نال استقلاله حديثًا، وكان الزميل قد انتهى من تقديمه فيما وقف هو، البساطى، يخبرها كيف أنه سعيد جداً بلقائها، وأنه قرأ كل أعمالها التى ترجمت ونشرت فى سلسلة (روايات عالمية) التى تصدرها الهيئة العامة للكتاب وأنها أعجبته، ليس وحده فى الحقيقة ولكنها أعجبت أبناء الجيل كله، أردت دفعه خلسة لكى أنبهه إلى أنهم لم يترجموا لها إلا رواية واحدة، ولكن السيدة جنبتنى مشقة المحاولة إذ وجدتها، وقد أنصتت فى هدوء، تستفسر عن معنى الكلام الذى تسمعه الآن، وهو، البساطى، أوضح لها ما يقصده، وهى علقت أنها ليست السيدة شديد، ولم تلتق بها أبداً.

كانت محنة ، وأوضحت للبساطى أن صدمة حضارية من هذا النوع يمكن استيعابها ، وتركت له حرية الاختيار بين الوقوع فى مثل هذه الفضائح أو العودة إلى الالتزام بنصائحى . أما الزميل صاحب المبادرة فلم يتعرض للمؤاخذة بعدما تبين أنه ظل يعتقد أن أى امرأة تتكلم العربية فى فرنسا هى ، بالطبع ، السيدة أندريه شديد . وما أن تهيأنا للانصراف حتى لحقنى جاك حسون وقال إن أمله الوحيد الآن أن نلبى دعوته للعشاء فى أى يوم نختاره لكى يعرف عائلته بأبناء وطنه ، إنها أمنية ، وشارك عدد من أعضاء الوفد فى هذا الكلام .

كان بعضنا سيسافر جنوبًا وبعضنا شمالاً ثم نعود للمبيت ليلة واحدة فى باريس قبل عودتنا إلى مصر ، وحينئذ قال إنه يحجز من الآن هذه الليلة الأخيرة . قلت :

«ماشى» .

وشد على يدى :

«وعد؟» .

قلت :

«عيب يا راجل» .

أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وكتب شيئًا .

سافرت وجمال الغيطانى للكلام فى جامعة (بوردو) وحضرنا عددًا من اللقاءات وقضينا هناك ليالى عدة جميلة ، ثم اتجهنا إلى جامعة (مونبيلييه) حيث درس طه حسين وقمنا هناك بمسائل مشابهة لما قمنا بها فى (بوردو) .

حوالى عشرة أيام لم يخطر خلالها جاك حسون ببالى لحظة واحدة . وما أن عدنا إلى باريس لنقضى ليلتنا الأخيرة حتى علمنا من الزملاء الذين لم يبرحوا أن الرجل يتابع تحركاتنا وينتظر . وفى أثناء وجودنا فى الباص فى طريقنا إلى معهد العالم العربى الذى أقام لنا حفل عشاء فى هذه الليلة الأخيرة ، أثيرت مسألة جاك حسون الذى اتصل عشرات المرات ليقول إنه أعد كل شىء ويجلس الآن فى انتظارنا .

تحول الموضوع إلى قضية خاصة بعدما تساءل أحد الزملاء عن كيفية ترك عشاء فى معهد العالم العربى والذهاب للعشاء مع واحد يهودى؟

المهم أننا قضينا سهرة مرحة لم يتوقف خلالها جاك حسون عن الاتصال لكى يؤكد مرة بعد المرة أنه سيترك كل شىء معداً فى انتظارنا ، وعندما تأخر الوقت قال إنه جالس حتى الصباح .

كانت تجلس إلى جوارى صديقة تقيم بين القاهرة وباريس وتجمع بين الجنسيتين ، أردت أن أسألها عنه ماذا يشتغل وكيف يقيم ويعيش هنا ولكنها اكتفت بأن أخبرتنى عدم شعورها بالارتياح نحوه ، لذلك عندما طلبنى بالاسم لكى يذكرنى بوعدى رجوت الزميل الذى أخبرنى أن يشرح له أن الوقت تأخر وأننا سنسافر غداً و«مزنوقين» .

ولم نذهب .

كان ذلك قبل سنوات (نهاية عام ١٩٩٤) .

رغم ذلك ظللت أتذكر الرجل بين وقت وآخر . لم أكن أعرف له عملا ولا عنوانا ، إلا أننى لم أترك أحداً إلا وحكيت له عن (خلوة الغلبان) .

كنت أشعر بشىء من الذنب ، وأننى مدين له بالاعتذار .

وقبل أسابيع اتصلت بى صديقة من باريس وأخبرتنى أنها علمت بأن هناك دعوة ستوجه إلىّ قريبًا ولا بد أن أسافر، وكان أول ما خطر لى أننى، لو سافرت، سأبحث عن رقم هاتف هذا الرجل وأعتذر له عن الموضوع القديم.

وفى اليوم التالى مباشرة كنت أقلب العدد الأخير من مجلة «الوسط» وأقرأ:

«توفى فى باريس عالم النفس والكاتب المصرى الأصل جاك حسون عن ٦٢ عامًا بعد صراع مع المرض الخبيث. وحسون معروف كأحد أبرز علماء النفس فى فرنسا. كان أحد أعضاء مدرسة باريس الفرويدية التى أسسها جاك لاكان إضافة إلى انخراطه طويلا فى صفوف اليسار التروتسكى. اشتغل صاحب (أسكندريات) و(القسوة الكئيبة) على اللغة والمنفى، والعلاقة بين اللغة الأم والهوية، وأصدر كتابًا مرجعيًا عن يهود بلاد النيل، الذين ينحدر منهم».

(مايو ١٩٩٩)

١ ـ كلب أسود فى رباط عنق أحمر

فى الطائرة إلى باريس توقعت والصديق جمال الغيطانى أن الظروف التى يعيشها العالم بعد أحداث سبتمبر سوف تجعل من إجراءات الأمن فى مطار (أورلى) هذه المرة غيرها فى كل مرة.

كان المطار الذى عهدناه يضج بالحياة خاليًا أو شبه خال، واتجهنا إلى حيث السير الزاحف الذى يحمل حقائبنا. بعض الحقائب وصلت وراح أصحابها يسحبونها، ثم بدأ السير يأتى من الداخل خاليًا من بقية الحقائب، وقتًا، ثم توقف.

ظللت واقفًا مع الواقفين حتى ظننت أن الأمر انتهى هكذا وأن الحقائب لم تغادر القاهرة أصلاً. فى تلك اللحظة جاء صوت المذيعة الداخلى يقول بأن هناك حقائب سوف يتأخر مجيئها بسبب بعض الإجراءات. وفهمنا أنها تخضع لشىء من الفحص أو ما شابه.

كان جمال قد أخذ حقائبه وسبقنى إلى الخارج.

وتوزعنا نحن فى أرجاء الصالة الكبيرة. البعض استند إلى عربات حمل الحقائب المعدن والبعض جلس على حافة السير الثابت، وأنا لمحت واحدًا يدخن فى أحد الأركان البعيدة. اتجهت إلى هناك وأشعلت السيجارة. عندما تحاشى النظر ناحيتى أدركت أنه ليس زائرًا مثلنا ولكنه

مقيم هنا وعائد من زيارة إلى مصر . . ليس فقط لأنه يعرف أن التدخين غير ممنوع فى ذلك الركن ولكن لأن تجربتى السابقة علمتنى أن هؤلاء يتحفظون عادة حيال التعرف بأبناء وطنهم القادمين حيث لا يعرفون إن كان الواحد منهم قادرا على إعالة نفسه أم لا . أنهم يفضلون أن يكونوا غير ودودين تجنبًا لأى مشاكل محتملة . وعندما أطفأ سيجارته وهو يعطينى ظهره وينصرف زاد إحساسى بالعزلة .

دخنت سيجارة أخرى ورحت أتمشى حتى اقتربت من بوابة الخروج الزجاجية العريضة لكى أطل على جمال الغيطانى الذى كان ينتظرنى بالخارج مع الدكتور عاصم عبد الحميد . ورأيتها ضبابية بسبب المطر الذى ينهمر . كنت حريصًا ألا أقترب من مجال الأشعة حتى لا تنفتح البوابة الزجاجية وأجد نفسى فى الشارع ، ما أن فعلت حتى انتبهت إلى شرطية فاتنة تقف عند مدخل حجرة مفتوح إلى يمينى ، وهى تفحصتنى وتوقفت عيناها الجادتان عند شعرى المنكوش وشواربى التى أطل من ورائها وتنحت عن المدخل قليلا ، حينئذ ظهر وراءها كلب جميل فى حجم جحش صغير ، له شعر قصير أسود لامع ووضع حول رقبته رباط عنق من الحرير الأحمر معقودا على هيئة فيونكة أنيقة ومحكمة ، وهو ظل واقفًا فى المدخل بقامته الكبيرة لا يلوى على شىء ، فقط ، كان يلهث بهدوء على النحو الكلابى الشائع ، ولسانه الوردى الطويل مدلى بين أنيابه إلى الخارج .

أنا تصرفت بشكل عادى تمامًا حيث ألقيت نظرة أخيرة عبر المدخل الزجاجى تدل على أننى مجرد رجل يتفرج على المطر وسوف يعود لموقعه فور أن ينتهى من ذلك .

وما أن استدرت لكى ابتعد حتى تحرك هو الآخر كأنه مجرد كلب يريد أن يتمشى فى المكان ثم يعود إلى موقعه فور أن ينتهى من ذلك .

ولم يمر وقت طويل حتى لاحظت أن جولته كانت عبارة عن محاولة لعمل دائرة متسعة ومغلقة من حولى. كنت أتلكأ هنا أو هناك مع شعور بالغ بالحرج لأن ذلك يحدث معى وحدى. بعد ذلك انتبهت إلى أننى كلما تلكأت أو اقتربت من أحد كان يتلكأ هو الآخر كأنه يتمشى ليس أكثر، أما إذا توقفت فإنه كان يتوقف ويستغرق فى التفكير وهو يتطلع إلى بعيد كأنه مشغول بتذكر شىء ما. لم يلتفت ناحيتى أبدًا وأيقنت أنه كان حريصًا على أن لا أكتشف ما يفعله معى. مع الوقت وجدتنى أكثر منه حرصًا على ألا يعلم أننى اكتشفته فعلا، حتى لا أحرجه.

بعد جهد أكمل الحلقة التى أرادها، وإن جاءت متطاولة ومعوجة.

هو لم ينصرف مباشرة، بل قضى وقتًا فى التمويه بأن راح يتسكع من دون هدف، ثم اختفى.

وعندما واصل السير زحفه وبدأت الحقائب المتأخرة بالوصول أسرعت إلى هناك. أخذت حقيبتى وسحبتها، وبينما كنت أعبر البوابة الزجاجية حيث الجو الضبابى والمطر الذى ما زال ينهمر، كان هو قد استقر مرة أخرى وراء الشرطية الشابة، فى ردائه الأسود، ورباط عنقه الأحمر.

قالوا لى إن حظى، كالعادة، كان طيبًا:

«لو كنت تحمل شيئًا ممنوعًا، كان أكلك».

٢ ـ سيدة اسمها «جانين»

ما يعرف بمناسبات التوقيع، أى أن يقوم الكتاب بالتوقيع على مؤلفاتهم التى يشتريها القراء تقليد أساسى فى دول الغرب كلها كما أنه عرف طريقه إلى بعض من بلداننا العربية .

يحدث ذلك فى معارض الكتب كلها كما أنه يحدث حال صدور كتاب جديد حيث تقيم بعض المراكز الثقافية بالتعاون مع الدور الناشرة ندوات تقرأ فيها فقرات من الكتاب تعقبها مناقشة ثم يقوم الكاتب، فى إطار حفل استقبال غالبًا، بالتوقيع على النسخ المباعة من كتابه، وهو أمر بالغ القيمة بالنسبة لهؤلاء القراء، ونسبة كبيرة منهم يحصلون على توقيع الكاتب من أجل تقديم النسخة كهدية ذات قيمة لآخرين، وهؤلاء يرجونك أن تهدى الكتاب إلى أسماء صديقات أو أصدقاء أو إلى أمهات أو أبناء وهكذا .

فى معرض (سانت إتيان) هذا الذى حضره حوالى ٤٨٠ كاتبًا من مختلف أنحاء العالم توجهت إلى المكان المخصص لنا من دون تردد، وما أن جلست وراء الطاولة حتى شعرت بأننى فى وضع غير مريح نفسيًا وألم بى خجل هائل ووجدتنى أقوم مبتعدًا ولم تفلح أية محاولة لإعادتى إلى مكانى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى أجد أن علىّ القيام بهذا الأمر . هناك

من يقمن بمسألة البيع والشراء طبعًا، إلا أننى شعرت بأن الجلوس هكذا فى انتظار من يشترى وكأننى أجلس وراء بضاعة وأن أحدًا قد لا يأتى ليشترى شيئًا، هى مسألة محرجة وأنا فى غنى عنها تمامًا.

أنا لست كاتبًا إلى هذه الدرجة.

لم أكن راضيًا عن موقفى أبدًا. فأنا من ناحية لا أستنكف هذا التقليد، كما أن هناك كتابا كبارا معروفين عالميًا يجلسون من حولى ويبدو عليهم التقدير الكامل لما يفعلون. ولقد انتهيت إلى أن المشكلة كانت، فى ما يبدو متعلقة بمسألة الانتظار والبيع والشراء نفسها، خصوصًا أننى، فى مناسبة ترجمة أخرى بعد ذلك بوقت قصير، وقعت على العديد من النسخ وفى عدد كبير من المدن الألمانية والسويسرية دون أى حرج. لم يكن هناك معرض، ولم أجلس فى انتظار أحد، بل كانت الندوة تنتهى، وأروح أمضى وقتى، أثناء حفل الاستقبال أتجول فى أرجاء المكان أشرب وأتحدث مع بعض الأصدقاء أو المرافقين، أو لا أتحدث مع أحد، ومن يريد توقيعى كان يبحث عنى ويأتى بالنسخة إلى حيث أنا، بعد أن يكون اشتراها بعيدًا عنى. حينئذ كنت أتناول القلم وأوقع من دون إحساس بحرج ولا يحزنون.

إذًا، رحت أمضى الوقت أتجول فى أرجاء خيمة المعرض الكبيرة، وإذا مررت على الركن المخصص لنا أتصرف باعتبارى لم ألمحه.

مرة، على الغذاء، حدثتنا الدكتورة كاميليا صبحى أساتذة الأدب الفرنسى بكلية الألسن وعضو الوفد عن سيدة فرنسية جاءت لكى تشترى كتابًا ثم انصرفت لأنها لا تقدر على الدفع باعتبار أنها تعيش ببطاقة الدعم الاجتماعى المعمول بها فى هذه البلاد. وأثناء مرورى على مقربة من الركن

الخاص بنا لحقتنى امرأة غير معتنية بثيابها، ممتلئة قليلا وفى يدها ورقة مما يستخدم فى الإعلان عن الكتب وراحت ترطن وقد قلبت الورقة ومدت يدها بالقلم. استنتجت أنها تريد توقيعى فوقعت لها على ظهر الورقة وأسرعت بالانصراف، وما أن ابتعدت قليلا حتى لحقتنى مرة أخرى وراحت تشير إلى التوقيع وتعاود رطانتها، فى هذه المرة لم أجد بدًا من الاقتراب والاستعانة بالدكتورة كاميليا التى حدثتها وأخبرتنى أنها تريد أن أكتب لها التاريخ تحت التوقيع. بينما كنت أفعل أخرجت هى كاميرا صغيرة من حقيبتها وأعطتها إلى الدكتورة لكى تأخذ لنا بعض الصور.

تناولت المرأة روايتى (وردية ليل) فى طبعتها الفرنسية ووقفت تقلب صفحاتها. وهمست لى الدكتورة كاميليا أن هذه هى السيدة التى أخبرتنا أنها تأتى كل يوم تقلب فى الكتب ولا تقدر على شراء شىء لأنها تعيش ببطاقة الدعم الاجتماعى.

دفعت لمن يقمن بالبيع ثمن نسخة (وردية ليل) التى كانت فى يدها وهى فتحت الصفحة الأولى وقدمتها إلىّ مع القلم وقالت:

«جانين».

كتبت:

«إلى الصديقة العزيزة جدًا جانين».

كما أضفت أمنيات عدة لشخصها وما شابه ذلك من عبارات، وهى أعطت الرواية للدكتورة كاميليا وأصغت بعناية إلى الترجمة الفرنسية لما كتبت، ثم فتحت حقيبتها ووضعت الرواية وأغلقت عليها، وتطلعت بعينين جادتين وقالت:

«ميرسى» .

وابتعدت .

رحت أواصل جولاتى وأنا أفكر بأننى كنت محقًا فى الابتعاد، ربما لو جلست مثل غيرى لقصدنى فقراء البلد جميعا، هؤلاء الذين لم يعد يعوزهم سوى الكتاب .

٣ ـ بنت مغربية صغيرة

عندما أكون وجمال الغيطانى فى أوربا نقضى وقتًا طيبًا . أسلمه كل شىء، جواز سفرى وتذاكر الطائرات والقطارات وبرنامج الرحلة كاملا وأنسى كل شىء. هو دقيق جدًا ويقظ إلى الدرجة التى أتصور معها أننى بدونه قد أضيع . على معرفة بمعظم البلاد التى ندعى إليها وخصوصًا العاصمة الفرنسية (باريس) وهو محب للطعام الجيد ويعرف أماكنه، وأنا أستغرب معرفته بهذه الأماكن فعلا . أيًا كان البلد الذى نكون فيه لا بد وأن يدعونى على نفقته إلى وجبة خارج السياق . وفى (سانت إتيان) غادرنا الفندق مساء ورحنا نجوب المدينة على أقدامنا طولا وعرضًا بحثًا عن مطعم معين أكل فيه قبل عشر سنوات ويريد أن يدعونى إليه . فى مثل هذه الحالات أشاركه البحث بمنتهى الهمة وأنا على ثقة من أننا لن نجد شيئًا، وتكون المفاجأة أننا نجد المطعم، والأغرب أنه يعرف، بعد الأكل، كيف نعود إلى الفندق. عمومًا، لا نفترق إلا لفترات قليلة نرتبط فيها بمواعيد خاصة. فى هذا اليوم تركنى لموعد مع صديقة إيطالية على أن نلتقى بعد الغذاء. (هو قال إنها ليست إيطالية ولكنه لم يقدم جنسية بديلة).

كان التدخين ممنوعا داخل خيمة المعرض الكبيرة، لذلك كنت أغادر بين وقت وآخر لأدخن. اليوم تجولت فى الشوارع المحيطة وعدت لأجد المعرض خاليًا من الكتاب ولا يوجد أحد ممن أعرفهم. وفى الركن الخاص

بنا وجدت الكاتب الفرنسى مصرى الأصل روبير سوليه (مجموعة من المؤلفات المهمة بينها الكتاب البديع: «مصر.. ولع فرنسى»).

«أمال فين الناس؟».

قال إنهم ذهبوا لغذاء هنا فى مبنى البلدية، وإنه سوف يأتى معى إلى هناك.

كان واضحًا أن الكتاب جميعًا قد تمت دعوتهم إلى هذا الغذاء العام. وكانت القاعة الضخمة ممتلئة بعشرات من الطاولات المشغولة.

المعتاد أن تظل واقفا حتى ينتهى أحدهم من طعامه ثم تذهب للجلوس مكانه. كانت الفتيات يذهبن ويجئن بأطباق الطعام، و(سوليه) وجد لنفسه مكانًا بعيدًا أرادنى أن أذهب إليه ولكننى شكرته ووجدتنى واقفًا هكذا وحدى على جنب تحت بصر هذه المئات من الخواجات، وكأننى فى انتظار أن يمن الله على بواحد ينتهى من أكله لكى آكل. مرة أخرى عاودنى إحساس بالحرج البالغ وأسرعت بمغادرة المكان.

كانت معى البطاقة التى تحمل عنوان الفندق والتى طلب منى جمال، قبل مغادرته، ضرورة المحافظة عليها:

«أى مشكلة، تاخد تاكسى، وتديله البطاقه، تلاقى نفسك فى الفندق».

رحت أتجول علنى أجد موقفًا للتاكسى الذى لا يتجول لالتقاط الزبائن من الشوارع مثلما يفعل عندنا ولكنى لم أجد. عدت إلى مبنى البلدية وصعدت الدرجات الرخامية العريضة التى تشبه درجات محكمة القضاء العالى فى القاهرة. جلست على الدرجة العليا، فى أقصى الزاوية اليسرى

من المدخل مقدرًا أن أيًا من أعضاء الوفد ينتهى من غذائه ويغادر سوف يمر على وأراه .

فى أسفل الدرجات العالية ، عبر الساحة ، كان مدخل الخيمة هناك . وهو مدخل واسع وفى وسطه (كاونتر) تجلس فيه فتيات يلبسن زيًا موحدًا يقمن بدور المرشدات غالبًا . وكانت واحدة منهن قد عبرت الساحة وراحت تصعد هذه الدرجات على مهلها ، وعندما اقتربت وجدتها تتجه إلىّ .

كانت تقف أمامى الآن وتحدثنى بالفرنسية وهى تبتسم . فى حوالى العشرين تقريبًا ولا أفهم كلمة واحدة مما تقول ، خمرية اللون وشعرها أسود ، ممتلئة قليلا وجسدها جميل وعيناها عربيتين جدًا ، جلست إلى جوارى على درجة السلم بساقيها المصقولتين ، الدافئتين ، وثوبها الذى يغطى نصفها الأعلى كله . سألتها إن كانت تتحدث الإنجليزية (أدبر أحوالى بها) .

قالت :

« قليل» .

قلت بدهشة :

«الله . أنت بتعرفى عربى؟» .

بان على وجهها شىء من الأسى وقالت :

«شويه شويه» .

كانت ملاصقة لى ، دون وجل ، فى أقصى الدرجة الرخامية العالية وقد

التفت كل منا إلى الآخر. عرفت منها أنها، أصلا، مغربية تعيش في (ليون) وتأتى كل يوم بالقطار لكى تباشر عملها بالمعرض، هنا في (سانت إتيان). قالت إنها سمعتنى أتحدث مع آخرين أثناء مرورى أمامهم في مدخل الخيمة، ومدت يدها إلى صدرى ولا مست البطاقة التى أعلقها، شأن غيرى من الكتاب، وقالت بثقة:

«مصرى».

«آه».

أخبرتنى أنها تعرف.

وبدا لى غريبًا أن تحدثنى هذه الطفلة عن طفولتها. حدثتنى بإبهام عن فاس، والدار البيضاء ومراكش. قالت إنها لا تنسى، وتحب عبد الحليم وأم كلثوم، وتحب شادية. عندما تسمع صوتهم في أى مكان تجرى إليه، وتفهم الكلام. سألتنى إن كان من الممكن أن تحصل على شىء كتبته. قلت:

«من عينيه».

«عليه كتابة منك؟».

«كتابه كتير. لغاية ما تقولى كفايه».

قالت بجدية:

«أنا أدفع».

أخذتها من يدها وهبطنا الدرجات الرخامية العالية ودخلنا إلى الخيمة. اتجهنا إلى الركن الخاص بنا إلا أننى وجدت النسخ، وهى قليلة على أى

حال، قد نفدت. أخبرتها أننى سوف أعمل المستحيل لكى أعثر لها على نسخة. ورحنا نتمشى. أراها نشيطة فى الواجهات الزجاجية بثوبها القصير الزهرى وأنا معها بشعرى الأبيض. تأخذ بمرفقى أثناء صعود الأرصفة (وأنا أفكر بأننى لم أصل لهذه الحالة بعد) وأبحث بعينى عن أحد من أعضاء الوفد دون جدوى. لم يكن ممكنًا أن يمضى أحد فى الأكل كل هذا الوقت. وتصورت أن هناك بابًا آخر خرجوا كلهم منه. كنا قد اقتربنا من مدخل الخيمة حيث قدمتنى لزميلاتها.

أخبرتها أننى زرت بلادها أكثر من مرة وأحببتها جدًا، وأنها بلاد جميلة وأهلها أحباء وقريبون من القلب، وأن لى فيها أصدقاء أعزاء، ورددت لها أسماء برادة ومحمد شكرى وإدريس الخورى والأشعرى وبن حميش وغيرهم، وهى كانت فرحة جدًا بكلامى عن المغرب وإن كنت لاحظت أنها لم تسمع بهذه الأسماء من قبل، وخشيت أننى عطلتها عن عملها وسألتها إن كان ممكنًا أن تدلنى على موقف للتاكسى حيث أريد الذهاب إلى الفندق. ابتسمت وأخذتنى إلى حجرة متسعة على جانب من مدخل الخيمة. جلسنا على أريكة جلدية داكنة. أخبرتهم أننى بحاجة إلى تاكسى، وجاء شاب ليرحب بى وفى يده جهاز اللاسلكى الصغير، رأى البطاقة على صدرى وقام باستدعاء التاكسى بجهازه، بينما اتجهت هى إلى الركن وجاءت بكوبين ورقيين من القهوة السوداء. كنا متجاورين، ندخن، ويتطلع كل منا إلى الآخر ونبتسم.

بعد قليل جاء الشاب حيث رافقنا إلى الخارج، كان التاكسى ينتظرنا بأبوابه المفتوحة والسائق يقف إلى جواره. فهمت منها أنها خدمة تقدم لكل المدعوين من الكتاب، وأن لا أدفع أجرة، بل أوقع للسائق على الاستمارة بعد وصولى.

وأخرجت أنا البطاقة التى تحمل عنوان الفندق.

قبل أن أركب سألتها:

«أنت اسمك إيه؟».

قالت:

«دليلة».

«اسمك حلو قوى يا دليلة».

ودليلة تعلقت برقبتي. عانقتنى وارتاحت برأسها قليلا على صدرى، وتراجعت بوجهها الجميل الخمرى.

كانت تبتسم، وتغالب البكاء.

(يونيه ٢٠٠٢)

«أشجان عضو منتسب»

(١)

قال :

«إننى ممن يدخلون ميدان الفن من اشد أبوابه ضيقًا وعسرا ،

وليست هذه الشرارة بزوارة ،

لهذا كنت من المقلين» .

وهو لا يشكو ،

بعدما عوض لذة البوح بلذة المراقبة :

«كأننى شاهد واقف على جنب ،

يطل على شيء عجيب يحدث أمامه ،

يحاول فهم سره ،

ثم لا ينقضى عجبه منه .

الفن بهذا المعنى هو النغمة لا الوتر ،

الزهرة لا البستان» .

ذلك هو ، بالضبط ، العم الكبير يحيى حقى .

(٢)

فى العـام ١٩٦٦ علـى مـا أذكـر بادر العـم يحـيى حـقى (الأب الشـرعى للقصـة المصرية الحديثة) بإصـدار عدد خاص عن القصة القصيرة التى كانت ازدهرت على أيدى عدد من أبناء الستينيات ، وذلك فى مجلة (المجلة) التى كان يرأس تحريرها .

تم اختيـار عدد من الكتـاب مع عـدد مواز من نقاد كبـار يتولى كل منهـم قـراءة قصـة والتعليق عليـها . اتصـلوا بى حيث ذهبت وتركت واحدة . آخـر النهار علمت أن الأستاذ قرأها وأعجبته .

توجـهت ليلا إلى مقـهى ريش من أجـل اللقاء الأسبوعى مع العم نجيب محفـوظ . كان هناك ، على غير العادة ، الناقـد الراحل فؤاد دوارة الذى كان يعـمل مـديرا لتحـرير (المجلة) . فى اليـوم التـالى اتصل بى الصـديق القـاص سـامى فريـد سكرتير تحرير (المجلة) والصحفى بالأهرام حـاليا وأخبرنى أن فـؤاد دوارة طلب قـصـتى وكتب عليـها (غيـر مـوافق) وفـهـمت أنه فعل ذلك دون أن يقرأها ، وأنهم يريدون منى قصة أخرى .

تصورت أن شيئًا ما حدث واستعرضت ما جرى فى لقاء نجيب محفوظ ولكنى لـم أجد ما يستوجب . المهـم أن المسالة كبرت فى دماغى فاتجهت إلى مقـر المجلة وأصررت على سـحب القـصـة رافضـا إحـضـار أى شىء آخـر . حينئذ طلبنى العم يحيى . وكانت المرة الأولى التى نتحدث فيها منفردين .

كان يجلس على مقعد أمام مكتبه .

تفحصنى جيدا بوجهه الطفولى وابتسامته الجميلة وقال :

«إيه يا أصلان؟» .

«أبدا يا أفندم» .

«مش عاوز تجيب قصه تانيه ليه؟» .

وأنا لم أرد .

قال :

«شوف يا سيدى ، هات لنا قصة تانية ، واحنا نبعت الاتنين للدكتور شكرى عياد إللى حا يكتب عنك ، وهو يختار واحدة» .

قلت ، أيامها :

« أنا فكرت إن ما دام حضرتك وافقت ، وأنت رئيس التحرير ، يبقى خلاص» .

ولبرهة ، كأننى ألمحها الآن ، تكدرت ابتسامته الوديعة وظل صامتًا .

قام على مهله وقادنى إلى البلكونة القريبة وهو يضع يده على كتفى .

بعد فترة ، التفت إلىّ وقد عاد الصفاء إلى عينيه وقال :

«شوف يا أصلان ، من ألفَ ، فقد استُهدِف» .

وأنا ،

سبحان الله ، ،

لا أنسى هذه العبارة أبدا .

(٣)

منذ ذلك الوقت البعيد ظللت أرى العم يحيى على نحو شبه يومى وحتى انتهت رئاسته لتحرير «المجلة». بعد ذلك اكتفينا بمتابعة أخباره بواسطة صديقنا القاص الراحل محمد الصادق روميش الذى كان أقربنا إلى قلب الأستاذ والذى لم تنقطع صلته به أبدا. ومحمد روميش (١٩٣١-١٩٩٢) كان واحدا من أشرف المثقفين الوطنيين الذين عرفناهم ومن أكثرهم طيبة وصفاء. كانت لديه ملامح جادة جدا وقامة ضخمة يتضاعف تأثيرها أثناء سيره برفقة العم يحيى بقامته القصيرة ووجهه الطفولى الماكر، وحقيبة الخضار المخرمة التى كان يحمل فيها أعمال الكتاب الذين يقدمونها للنشر فى المجلة.

روميش بدأ الكتابة أواخر الخمسينيات وأصدر مجموعة قصصية وحيدة بعنوان (الليل الرحم ١٩٧٣) اتخذت من الريف مشهدا، وهى مجموعة قصصية جميلة إلا أننى أعلنت له استنكارى من إطلاق اسم (إنسانيات) على فلاحة من شخصيات المجموعة، وهو أقسم أنه لم يقصد شيئًا وأن فى بلدتهم امرأة بهذا الاسم ولكننى لم أقتنع أبدًا بهذه الحجة لأننى كنت على بينة من طبيعة الأفكار التى تعتمل فى رأسه. وقد تم عقابه، بسبب هذه الأفكار، بأكثر مما توقعت حيث ألقى القبض عليه فى العام ١٩٧٥ وظل معتقلا بسجن (طرة) لمدة أربعة شهور بسبب عضويته فى جمعية (كتاب الغد) التى اعتبرتها المباحث حزبا سياسيا. وكانت هذه مناسبة معقولة لكى يتوقف عن الكتابة نهائيا وينضم إلى قافلة (الأعضاء المنتسبين) وإن ظل مشاركًا فى الحياة الثقافية بنفس الجدية والاهتمام.

(٤)

أنا طبعًا أريد أن أتحدث عن عمل يحيى حقى (٢٨ مجلدًا استنقذها فؤاد دوارة بمعجزة من صفحات الجرائد والمجلات المعروفة وغير المعروفة) ولكننى غير قادر على فعل سواء ما فعله النقاد من قبل، أو ما نأمل أن يفعلوه من بعد. أكتفى بشذرات عابرة من صفحات سيرته الذاتية الجميلة التى كتبها فى عنوان (أشجان عضو منتسب). مجرد شذرات تشير فقط إلى بعض من هموم الكتابة التى شغلت أبناء هذا الجيل الذى يحيى حقى فى المقدمة منه. يقول:

«كان علينا فى فن القصة أن نفلك مخالب شيخ شحيح، حريص على ماله أشد الحرص، تشتد قبضته على أسلوب المقامات، أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة، أسلوب الزخارف والبهرجة اللفظية والمترادفات، أسلوب المقدمات الطويلة والخواتيم الرامية إلى مصمصة الشفاه، أسلوب الواوات والفاءات والثمات والمعذلكات والرغمذلكات والبيدأنات واللاسيمات، أسلوب الحدوتة التى لا يقصد بها إلا التسلية. كنا نريد أن ننتزع من قبضة هذا الشيخ أسلوبًا يصلح للقصة الحديثة».

ويستمر يحيى حقى، الذى يعد مع المازنى وعبد الفتاح الجمل، والجبرتى قبلهما، علامات بارزة فى سياق تحقيق لغة جديدة بالقص، لكى يشير إلى بعض المشاكل التى ما زلنا نعانى منها حتى الآن ويقول:

«ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أننا ـ نحن القصاصين ـ كنا نعيش فى عزلة عن أبناء الفنون الأخرى، مع أن المشكلة عندنا جميعا واحدة، ولا بد أن ينتفع بعضنا بتجارب بعض، لكى يتساوى الخطو إلى

الأمـام على الأقل فى جـمـيع مـيـادين الفن . بسـبـب هذه العـزلة كـان لا بد لعملنا أن يكون هشًا وفقيراً مهما ملك من ماله الخاص» .

وهو يربط بين غنى القصة وغنى، أو بساطة، المجتمع الذى تكتب فيه :

«وكيف تريد لها أن تثرى وتعمق دون أن يكون بجانبها حركة نشيطة فى الفلسفة والاجتهاد الدينى، فى الدراسات التاريخية واللغوية» .

وهكذا .

(٥)

طوال السنوات التى لم نعد نرى فيها يحيى حقى كان روميش يراه ولا يشير أبدا إلى ما كان يدور بينهما من كلام . إنه فقط يطمئننا عليه . ظل كذلك حتى أصيب بذلك المرض الذى بدا مبهمًا أول الأمر . كان قد رافق الروائى الراحل عبد الحكيم قاسم إلى بلدته حيث رشح الأخير نفسه فجأة عن حزب التجمع لانتخابات مجلس الشعب، وراح يخطب فى القرى والنجوع ويخوض نقاشات مختلفة مع (الجماعات) وغيرها، أصيب عبد الحكيم بتلك الأزمة التى أودت بحياته فيما بعد بينما كان روميش يرقد فى الحجرة المجاورة له . وهو ظل معه حتى استقر فى مستشفى (طنطا) ثم جاء من هناك إلى اجتماع مجلس تحرير مجلة (أدب ونقد) وحكى لفريدة النقاش وحلمى سالم وأنا عما جرى .

منذ ذلك الوقت راح روميش يشكو من أعراض مبهمة، وأنا أداعبه وأرد سبب ذلك إلى المحنة التى عاشها إلى جوار عبد الحكيم أثناء الأزمة، وأطالبه بأن يستخدم (طاسة الخضة)، ثم اتضح أنها مشكلة خطيرة فى الدم

وأن الأمر متوقف على مدى استجابته للعلاج. روميش لم يكن مقتنعًا. كان يرى أن المشكلة الأساسية سببها أن واحداً من الأطباء لم يسمع، حتى الآن، موضوع مرضه جيدا. يخبرنى أنه ما أن يجلس أمام الطبيب منهم ويبدأ القصة من أولها حتى يهز هذا الطبيب رأسه ويبتسم وهو يكتب تذكرة الدواء. ألح أنا عليه أن لا يفرط فى الحكى لأن الأطباء الكبار لا وقت لديهم وهو يقسم أنه يوجز:

«لكن فيه حاجات لازم يسمعها. أمال يعالجنى إزاى؟».

أصبحت المشكلة التى تواجهنا أن نجد فى القاهرة طبيبًا كبيراً يسمع روميش حتى يحكى الحكاية كاملة.

اتجه تفكيرنا، ليلا، إلى الدكتور خيرى السمرة باعتباره أكبر الجميع وأشهرهم إعلاميا فى ذلك الوقت، فكرنا فيه وأيقنا أنه لن يجد وقتًا يسمع فيه روميش على الإطلاق، فضلا عن أن موعد حجز الكشف لن يكون بعد قبل عدة شهور فى أفضل الأحوال. وانتوينا الاستعانة بكاتبنا الكبير حتى يتوسط لديه.

فى النهاية تغلب روميش على تردده وتحدث مع يحيى حقى الذى بادر بالاتصال بالدكتور خيرى السمرة الذى قرر أن يكون الكشف فوراً.

وذهب روميش، وعاد.

فى مساء اليوم التالى اتصل بى. حكى لى، وهو بادى الحيرة، ما دار بينه وبين يحيى حقى. قال إنه اتصل بالأستاذ فور عودته من عند الطبيب، وأن الأستاذ سأله:

«هيه. عملت إيه يا روميش؟».

«رحت يا أستاذ يحيى، وكشفت».

«كويس قوى. وسمعك لغاية الآخر؟».

وقال روميش، الذى لم يكن مقتنعًا كفاية:

«الحقيقه، هو يعتبر سمعنى».

«جميل جدًا. وكتبلك علاج؟».

«كتير. ومريت على الأجزخانة واشتريته».

«أشتريت العلاج كله؟».

«كله يا أستاذ يحيى».

«عال. ودلوقت بقى أنا عاوز منك حاجة مهمة يا روميش».

«خير يا أستاذ يحيى».

«إوعى تاخد منه أى حاجة».

«من العلاج؟».

«تمام كده».

«ليه يا أفندم؟».

«لأنه حيعمل لك إسهال يا روميش».

«الدوا؟».

«تمام كده».

ولما كان إيمان روميش بالأستاذ لا يتزعزع فإنه وعده بأن

لا يتنـاوله ، وركنه . وهو يتصـل بى لكى يخبـرنى أنه مندهش جـداً من هذا الموضوع :

« إيه الحكايه الغريبة دى يا واد يا إبراهيم؟ » .

طلبت منه أن يأخذ الدواء ولا يخبر الأستاذ . وهو قال :

«تفتكر كده؟» .

قلت

«طبعًا» .

قال :

«الظاهر إن أنا حاعمل كده فعلا» .

المهم أنه جرت محـاولات لسفره إلى الخارج . كنت أطمئنه بأن هناك من يسعون لتحقيق ذلك ، وكان يهمس لى وهو يدير وجهه خجلاً .

«المهم إن إللى بيسعى ، يعمل لنفسه همة شويه» .

ولـم يسافر .

بعد شهور قليلة وقع فى الطريق العام .

رحم الله الجميع .

❋ ❋ ❋

قبل رحيله بأعوام ، صرت وفؤاد دوارة صديقين .

(٩٨ ، أبريل ٢٠٠٢)

فى ذكرى رحيل كاتب بديل

طالب صديقنا الناقد على أبو شادى رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة (قبل أزمة الوليمة والروايات الثلاث) بضرورة تكريم الراحل عبد المعطى المسيرى ومنحه درع الهيئة المذكورة. حدث ذلك فى المؤتمر الرابع لأدباء مصر فى الأقاليم الذى عقد فى مدينة (دمنهور) مسقط رأس الكاتب الذى قضى قبل سنوات طويلة، دون أن يذكره أحد. ولأن القرار هذا ملأنا بالسرور المفاجئ، آثرنا المشاركة فى المناسبة بالمشاهد التالية، تكريمًا للراحل البديل، ولكل الكتاب البدلاء، فى هذا الوطن.

* * *

كانت مقاعد القاعة التى أنشأها يوسف السباعى مشغولة بجموع من الأدباء والمتأدبين، والمنصة يعتليها عدد من كبار ذلك الزمن، والكلام يدور حول بعض الأمور الملموسة، حين لمحت شيخا عجوزًا يغادر مكانه، ويشق طريقه بقامته القصيرة النحيلة، ويصعد المصطبة الخشبية أمام المنصة، ويدق الخشب بعصاه وهو يتطلع من وراء نظارته السميكة حتى خيم السكون.

تكلم الرجل متمهلا عن القصص التى يتم الاشتراك بها فى مسابقة نادى القصة (أقدم المسابقات القصصية فى مصر). قال إننا نعرف جميعًا أن

هذه القصص فى مراحلها النهائية ، يتم تحويلها إلى ثلاثة من الكتاب الكبار لكى يضعوا تقديراتهم لاختيار القصص الفائزة ، وأن أعضاء اللجنة ، بسبب من مشاغلهم ، لا يجدون وقتا للقيام بقراءة هذا الكم من القصص المقدمة ، لذلك فإنهم يعهدون بها سراً إلى من يقومون بهذا العمل ، ثم يعطونه نسبة من المكافأة التى يحصلون عليها من إدارة النادى ، وأنه شخصيا واحد من هؤلاء المحكمين من الباطن .

عند هذا الحد هاجت القاعة هياجا شديداً وهب كبار المنصة واقفين يزجرون الشيخ ويطالبونه بالعودة إلى مكانه فوراً ، ولكن الشيخ لم يلتفت . اعتمد بيديه على رأس عصاه وراح يتطلع أمامه فى مزيج من الهدوء والصبر العنيد . ومال حافظ وهمس فى أذنى قائلا :

«ده عمك عبد المعطى المسيرى» .

حدث ذلك عندما أخذنى الصديق محمد حافظ رجب أوائل الستينيات إلى دار الأدباء لكى أرى الكتاب فى اجتماعهم . وكانت المرة الأولى التى أحضر فيها اجتماعًا أدبيًا أو غير أدبى ، كما كانت المحاولات التى جرت من أجل زحزحة العم عبد المعطى قد باءت بالفشل ، وبات واضحًا أن الرجل يفضل الموت على مغادرة موقعه . وهدأت الضجة قليلا بعدما واصل كلامه قائلا ، وهو يدفع الأيدى عن نفسه ، إنه لا يريد بذلك أن يفضح أحداً ، ولن يذكر أسماء ، واستطاع بفضل الإيضاح هذا أن يخلص نفسه فعلا ، وما أن تركوه حتى صرخ فجأة :

« الأوان آن ، يا إخوان ، بعد هذا التاريخ الطويل ، أن يتحول كل المحكمين من الباطن فى هذا البلد ، إلى محكمين شرعيين معترف بهم» .

وفى قلب هذا اللغط العظيم، فشل الاجتماع تمامًا وخلت المنصة، فجأة من ناسها، بينما غادر العم عبد المعطى موقعه، لا يلوى على شيء.

أخذنى حافظ واقتربنا منه، قدمنى إليه، ورافقناه إلى الخارج.

كان هادئ النفس كمن لم يفعل شيئا. وكان وجهه صغيراً حتى بدت النظارة السميكة كأنها لم تترك فيه مساحة أخرى تكفى للتعبير عن شيء آخر، يرتدى بدلة عتيقة كاملة، شعره مصبوغ ومشدود على جمجمته الجافة الضامرة، ويلعب بشفتيه لكى يضبط طاقم الأسنان.

أثناء الحديث عرفت أنه صاحب مقهى المسيرى القديم فى (دمنهور)، وهى واحدة من أشهر المقاهى الأدبية التى أمها عدد من كبار الأدباء المصريين والعرب، وذلك قبل أن يغلقها ويأتى إلى العاصمة تلبية لدعوة يوسف السباعى لكى يأخذ وضعه حيث صار واحداً من صغار الموظفين مع محمد حافظ رجب فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وأنه يسكن الآن فى إمبابه على بعد شارعين من منزلى.

عندما وصلنا على أقدامنا إلى ميدان (الكيت كات) ووقفنا على شاطئ النهر، أصر على أن نذهب غداً إلى بيته لكى نشرب الشاى ويهدينى شيئا من كتبه:

«وتعرف البيت بالمرة».

حينئذ سألته (أيامها كان بوسعك أن تسأل دون حرج) منذ متى وهو يقوم بحكاية التحكيم من الباطن هذه؟

قال إنه يقوم بها منذ مجيئه إلى القاهرة.

وعدت أسأله عن سبب سكوته طوال هذه المدة؟

وهو أوضح أن الكاتب الكبير الذى يتعامل معه، قبض الفلوس هذه المرة من الخزينة وكتم عليها. .زاغ، وأضاف بابتسامة خفيفة:

«شوف قلة الأدب».

كان العم عبده يسكن الطابق الأخير من أحد البيوت القديمة على مقربة من مدرسة إمبابة الإسماعيلية التى حصلت منها على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، وكان حافظ قد سبقنى على السلم وراح يدق الباب حتى فتحت لنا سيدة عجوز فى رداء أسود. واستقبلنا العم عبده فى ثيابه الكاملة. وقال مخاطبًا زوجته:

«دول بقى ياستى، شباب المستقبل».

لم يمض وقت طويل حتى شعرت أن الأحوال لم تكن على ما يرام، وصار العم عبده فى نظرى رجلا مبهمًا عن أمس، يقوم بيننا ويحاول أن يتحرك فى المكان الضيق ولو على مهل، دون جدوى، فيعاود الجلوس متنهداً كمن رضى بقضائه، لكن على مضض.

وبدا صوته فاترًا وهو يحدثنا عن سيرته الأدبية المعروفة، وعن المقهى الشهير عربيًا منذ العقود الأولى لهذا القرن، وكيف أنه كان، كمقاهى ذلك الزمن، يستعين بواحد من شعراء الربابة المحترفين الذين ينشدون حلقاتهم اليومية من السير الشعبية المعروفة، وأن عبد المعطى الصغير كان يدمن سماعها حتى استطاع أن يستظهر هذه السير تمامًا، وكيف أن والده ما أن اكتشف ذلك حتى وفر أجرة الشاعر ووضع عبد المعطى على الدكة بدلا منه، وكيف أنه قام بهذه المهمة خير قيام، ثم أوضح:

«من غير ربابة طبعًا».

وفى حضرة الأسماء البارزة التى زارت المقهى شب الولد محبًا للأدب والأدباء، وبدأ يعد نفسه للدور الذى وهبه حياته كلها. أخبرنا أن كتابه الأول كان مجموعة من الفصول، كل فصل تقليد لواحد من أصحاب الأساليب المعروفة فى ذلك الحين: طه حسين، العقاد، الرافعى، المازنى، المنفلوطى، وغيرهم، وأن أى قارئ كان يظنها لهؤلاء الكتاب أنفسهم. وقال إنه طبع هذا الكتاب على نفقته الخاصة، وأن عملية الطباعة هذه كلفته ثلاثين قرشًا، والكتاب نفذ بطبيعة الحال، ولكن هناك مجموعة قصصية نشرتها له مؤخرًا الهيئة المصرية العامة للكتاب وأنه سيهدينى نسخة منها.

راح ينحنى ويبحث تحت الدولاب والمقاعد المزنوقة وهو يثير ضجة لها ما يبررها، ثم انتصب وفى يده نسخة من كتاب صغير فى عنوان «مشوار طويل». حينئذ ارتفع صوت بكاء على مقربة منا، وجذب العم عبد المعطى ستارة جانبية، كان هناك سرير عريض عليه عدد من الأولاد النائمين وقال:

«مين إللى بيعيط يا أولاد؟».

وصعد على ركبتيه.

راح يهز هذا ويقلب ذاك حتى أيقظ الجميع. واختلطت أصوات البكاء على نحو يصعب تقديره، ورأيته يهز واحدًا مازال نائمًا. وطلب منه حافظ أن يتركه لأنه ليس من الضرورى أن يوقظهم كلهم، ولكن العم عبده التفت إليه وهو يجلس وسط هذه المناحة وسأله:

«أسيبه إزاى يا حافظ؟ هو فيه حد يعرف ينام فى الدوشة دى؟ مش جايز يكون مات؟».

واستدار إلى الولد حتى جعله يقوم محتجًا، حينئذ اطمئن وقال:

«خلاص نام. نام».

وهبط من الفراش. جذب الستارة والتفت إليّ:

«عرفت البيت؟».

قلت:

«آه».

«كويس. إبقى تعال».

سبقنا إلى الباب وهو يكتب الإهداء.

كان ذلك أول كتاب يهديه مؤلفه إليّ. تناولته شاكراً.

قال:

«اقرأه».

قلت:

«طبعًا».

وأردت الانصراف.

قال بشيء من الضيق:

«افتحه واقرأه».

وما أن بدأت التفكير في هذا الطلب الغريب حتى نبهني حافظ إلى أنه يقصد الإهداء. فتحته وقرأت:

« إلى الزميل إبراهيم أصلان» .

شكرته مرة أخرى وأردت مصافحته إلا أنه رد فى اقتضاب :

«العفو» .

وأغلق الباب .

لم أعد إلى بيت المسيرى بعد ذلك أبدًا .

كان حافظ يمر بى كل يوم تقريبًا ، وكان يقترح على أحيانًا أن نذهب لزيارته لأنه يسأل عنى عندما يلتقيه فى المجلس الأعلى حيث يعملان ، إلا أننى لم أكن راغبًا .

لم تكن ظروفه المعيشية الصعبة غريبة بالنسبة لى ولا لمن هم حولى من الناس ، ولكن العم عبده أورثنى ، فى تلك المرحلة المبكرة المشحونة بالأحلام قدراً هائلا من المضاعفات الواضحة ، والارتباك . كان أكبر الكتاب الذين رأيتهم سنًا ، وتمثل لى باعتباره مصيراً قائمًا ، وأننى أسعى نحو هذا المصير من دون أن تكون لى حيلة فى رده أبدًا . وفى شارع السوق التقيته وفى إحدى يديه لفة بها سردين وفى الأخرى حزمة كبيرة من البصل الأخضر ، وكانت سترته مفتوحة عن صدره الضامر ، ورباط عنقه رفيع جدًا .

« إزيك يا عم عبده؟» .

«الست يا سيدى ، نفسها تاكل سردين وبصل أخضر» .

وتأملنى قليلا :

«هيه . بتكتب والا لأ؟» .

«شوية كده» .

«لازم تكتب . الكتابة هى الشىء المهم» .

وتطلع فى عينى بغضب :

«أنا مش مقياس . فاهم؟» .

شعرت بالدهشة والخجل ونحن واقفان وسط الزحام ، لم أكن أظن أبدًا أنه قادر على معرفة ما يدور فى رأسى . وما أن حاولت الكلام حتى قال :

«سيبك من الكلام ده كله . أنا فاهم كل حاجة» .

اقتربت أضع يدى على كتفه كى أقبل جبهته الجافة ولكنه تراجع قائلا :

«مع السلامة» .

فى أثناء جلوسى فى مقهى (عوض الله) كنت أفاجأ به يتمشى ليلا ، بخطواته القصيرة المتصلبة ، ورأسه الصغير الشامخ ، هناك على شاطئ النهر ، عصاه فى يد ، والأخرى على صدره وقد تعلقت بها زوجته فى ردائها القديم الداكن ، وطرحتها الحريرية السوداء مشبوكة تحت ذقنها ومدلاة على صدرها بعناية ، تجر قدميها بالجوارب السميكة القاتمة ، يصعدان أكوام القمامة العالية من دون انحراف ، ويهبطان من عليها بتماسك ملحوظ . كنت أتابع هذا الترفع الذى يليق بأناتول فرانس أو السيد تشوسر أو ما شابه من أسماء كانت تحتل أدمغتنا فى ذلك الزمن ، وأنساه ، لا أذكره إلا إذا صادفته يقوم بنزهته غير اليومية ، وغاب زمنًا ، وسافر حافظ إلى الإسكندرية زمنًا آخر ، وعندما التقينا سألته عرضًا عن العم عبده فقال :

«ده مات» .

تطلعت إليه غير مصدق، فلم أسمع بذلك، ولم أقرأ خبراً واحداً يشير إلى موته، ولكن حافظ أكد لى:

«ده مات، وشبع موت».

«فى دمنهور؟».

«لأ. مات عندك فى إمبابه».

وحدثنى حافظ أنه لم يكن ممكنا أن يعرف أى واحد بموته، أو يحس به، لأنه مات فى يوم من الأيام التى لا يعلم بها إلا الله، وأن أهله لم يجدوا فى الحى كله مخلوقًا واحدًا موجودًا لكى يعاون فى حمل جثمانه، ولم يكن ذلك كله إلا لأن العم عبده لم يكتف بما جرى له، ولنا، بل إنه مات فى اليوم نفسه الذى مات فيه عبد الناصر.

(نوفمبر ١٩٩٩)

أنت.. يا من هناك

(١)

خلال الشهر الماضى جاء صديقنا القديم محمد حافظ رجب من الإسكندرية. حضر ندوة بأتيلييه القاهرة ورحل، دون أن نراه.

أخبرنى الشباب أن الحضور كان قليلا، وأنه جلس على المنصة صامتًا، عجوزًا هده الإعياء، وأنه سأل عنى، وعاد.

(٢)

وأنا كنت، زمان، غادرت منزلى والكاتب الراحل ضياء الشرقاوى واتجهنا إلى ميدان (الكيت كات) بحثًا عن سيارة أجرة يعود بها إلى منزله، إلا أننا رحنا نتجول ونتحدث على شاطئ النهر مثلما اعتدنا أن نفعل كلما جاء لزيارتى.

كان ذلك فى وقت متأخر من إحدى ليالى الصيف، بداية الستينيات. وكنا نجلس على السور الحجرى القصير الذى يعلو الشاطئ المنحدر، والأشجار الهائلة التى يحتلها طائر أبو قردان تحجب السماء من فوقنا، وأمامنا كانت الأغصان القوية لهذه الأشجار قد تدلت وصنعت لنفسها

جذورًا أخرى فى أرض الرصيف المغطاة بالإسفلت، عندما لمحت شابًا يعبر كوبرى الزمالك (أزيل الآن) ويتجه نحونا فى خطوات متباطئة وهو يتأبط حزمة من الورق.

صافح ضياء دون أن يلتفت إلىّ وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لا تخلو من استهجان.

تبادلا عبارات قليلة، ثم سمعته يقول لضياء، الذى كان واقعيًا اشتراكيًا فى ذلك الوقت:

«أنتم لسه بتكتبوا القصص الواقعية بتاعتكم دى؟».

ورأيت ضياء يبتسم ويهز رأسه بما يعنى:

«نعم».

وقال الآخر:

«دا إحنا خلاص، عملنا مدرسة جديدة فى القصة»،

ورفع ذراعه الخالية إلى أعلى وقال:

«ودلوقت قاعدين فوق، وعمالين نطرطر عليكم، وأنتم قاعدين تحت».

واستغرق فى الضحك وأضاف:

«آه والله».

ورأيت ضياء يضحك مرتبكًا ويحرك وجهه إلى هنا أو هناك، وينقل ثقله من قدم إلى أخرى، حتى أسعفه الموقف بعربة يستوقفها، وينصرف.

وبقينا وحدنا على شاطئ النهر.

منذ ذلك الحين لم نفترق، إلا فترات اعتكافه المتباعدة، وحتى عاد نهائيًا إلى الإسكندرية.

(٣)

ومحمد حافظ رجب هو صاحب المجموعات الرائدة (غرباء - الكرة ورأس الرجل - مخلوقات براد الشاى المغلى) فضلا عن مجموعة مشتركة مع آخرين (أكل عيش) ومجموعتين أخيرتين أصدرهما بعد صمت دام قرابة الثلاثين عاما هما (حماصة وقهقهات الحمير الذكية) و(طارق ليل الظلمات) التى أقيمت من أجلها ندوة الأتيلييه، وهى كتابة تقتفى آثار نهجه المعروف، بعد أن هدأ القلب المعذب وافتقدت الروح حماستها وجموحها القديم اللافح.

وهو من نسبت له تلك الصيحة الشهيرة (نحن جيل بلا أساتذة) والتى اتخذت علامة على جيل كامل من الكتاب، بينما كان قائلها الحقيقى هو الناقد سيد خميس. وهو الفقير المشاكس الذى تقدم الصفوف أعزل إلا من إيمانه بما يكتب، متلقيًا الطعنات عوضًا عن آخرين. عرفته حوارى الإسكندرية وأرصفة المحطات بائعًا للب والسجاير وأوراق اليانصيب، وعرف هو سلطة القهر باكرًا متمثلة فى شرطة البلدية. كم حكى لى، وعبر فى قصصه، عن تلك الملاحقة التى تركت فى نفسه أثرًا داميًا، من هؤلاء الذين كانوا لا يكفون عن مطاردة الباعة من رصيف إلى آخر بينما هم يسعون من أجل لقمة العيش، ومغالبة الأيام.

كان حافظ قد شارك فى العام ١٩٥٠ ، أى فى الخامسة عشرة من عمره فى تأسيس الرابطة الثقافية للأدباء الناشئين ، ثم رابطة لكتاب الطليعة عام ٥٦ ، نشرت قصصه الأولى فى جريدة (المساء) التى كان يشرف عليها فريق من رموز اليسار الوطنى ذلك الوقت . كانت قصص البدايات تلك من أجمل النصوص التى عرفتها القصة الواقعية ومن أكثرها رهافة وتأثيراً . تناوله مفكرو اليسار ونقاده فى المساء وغيرها باعتباره ظاهرة مهمة ومدهشة : بائع اللب الذى يكتب قصصًا !

تزوج حافظ فى سن مبكرة (السابعة عشرة تقريبًا ـ ولد فى ١٩٣٥) وسرعان ما أصبح أبًا لفتاتين ، إلا أن زواجه تعرض لانتكاسة هائلة وبقيت الصغيرتان فى رعايته . وعندما كان فى الخامسة والثلاثين ، طيبًا مثل طفل ، كانت كبراهن فى السابعة عشرة .

المهم ، ترتب على هذا الاهتمام النقدى بقصص حافظ أن قام يوسف السباعى الذى كان مسئولاً عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بإرسال مندوب خاص يستدعيه إلى العاصمة . فى ذلك الوقت تمامًا كان أبو حافظ قد استطاع الحصول على محل صغير افتتحه مطعمًا معتمداً على أن حافظ سوف يعاونه فى تشغيله (راجع قصص : «الأب حانوت وغيرها») . وحافظ رفض عرض أبيه من دون مناقشة . جاء محملا بالآمال الكبيرة إلى المدينة التى استدعته باسم أحد كبار مسئوليها ، فاتحة ذراعيها لموهبته الغالية ، وهى الآمال ، الواهية دائمًا ، والتى أدت إلى البداية الحقيقية لمأساته .

كان حاصلا على الابتدائية ، وهكذا قام السباعى بتعيينه موظفًا بالمجلس الأعلى بمكافأة قدرها اثنا عشر جنيهًا . ولم تمر أيام قليلة على استلامه العمل حتى مات أبوه .

ويقول لى :

«مات بعد ما سبته وجيت على طول . أنا السبب» .

(٤)

سكن حافظ حجرة على سطح عمارة قديمة بحى (العجوزة) القريب من (الكيت كات) حيث أعيش . كان أصحاب العمارة قد خصصوا لكل شقة حجرة صغيرة للغسيل ، إلا أن هؤلاء قاموا بتأجيرها ، وسكن هو واحدة منها .

كانت مساحة الحجرة مترًا واحدًا فى مترين ، وهو نفس حجم السرير المعدنى الذى وضعه بداخلها ، لذلك كان بابها يفتح إلى الخارج . كنت أخلع حذائى وأنا واقف على السطح وأعتلى الفراش بينما يتراجع هو لكى يفسح لى . مع الوقت صرت أطرق الباب وأنتظره حتى يرتدى ثيابه ونغادر المبنى كله إلى منزلى أو المرور على بعض أصدقائه من الكتاب . كان الفنان والناقد التشكيلى الراحل محمود بقشيش (أيامها كان يكتب القصة أيضا) يعيش فى سطح آخر مشابه ، وكان الموهوب جدًا محمد جاد يعيش فى شقة أرضية بنفس الحى حيث التقيت لأول مرة بالشيخ إمام والشاعر أحمد فؤاد نجم ويحيى الطاهر عبد الله والصديق الكاتب سيد خميس الذى كانت له مهام تثقيفية فى إطار الجماعة كلها . وكان حافظ يقول لى إنه لا يضيع وقتًا :

« أبو السيد ، كان بيقعد معانا بعينه اليمين ، وهو ماسك ماركس وعمال يقراه بعينه الشمال» .

عبر السنوات التى قضاها فى القاهرة توطدت علاقتنا. لم نفترق إلا أوقات أزماته التى كانت تداهمه ويخضع فيها للعلاج، أو المرات التى كان يفر فيها من وطأة الأحوال ليلوذ بالإسكندرية زمنا ثم يعود.

كان حريصًا على ألا نلتقى أبدًا إلا وهو صحيح الروح والبدن. وأنا كنت أكثر منه حرصًا على إسقاط هذه الأوقات من علاقتنا.

ولكن ذلك لم يمكن تجنبه. ولن أكتب عن ذلك الآن.

(٥)

يرتدى قميصًا، ويرسل الآخر إلى المكوجى، ويجلس فى انتظاره.

إلا أن المكوجى كان يهمله بسبب انشغاله فى كى أكوام الملابس التى تأتيه من كل شقة على حدة. وبدأ حافظ يعتقد، بسبب من أن التجاهل كان عموميًا، ولا توجد أية أسباب مفهومة لما يجرى، أن وراء ذلك كله نوعًا من العمد، وأنه يتعرض لما يشبه التضييق، أو الملاحقة.

إنها ليست حكاية مكوجى يتجاهل القميص الذى يجب أن يذهب به إلى العمل، لقد تجاهلته المدينة التى استدعته فاتحة ذراعيها، تبدد السحر، وكشر الواقع عن جهامته القاسية، ولم يكن محمد حافظ رجب موهوبًا كبيرًا فقط، بل كان يتمتع بقدر هائل من الحساسية والطهارة الروحية النادرة، ورغم أنه كان لا يخلو من فظاظة حيال أنصاف الموهوبين والأشباه، إلا أنه كان وديعًا مثل طفل، صريحًا وبسيطًا، وهو ضرب من الامتياز الذى تنفرد به الأذهان المتفوقة والمدركة لقيمتها فى نفس الوقت.

كان يشعر أن الجميع غرباء حد القهر، وأن الجيل الذى ينتمى إليه جيل

يتيم و(بلا أساتذة) فعلا ، هؤلاء الذين تركوه هكذا ضحية لكل صنوف القهر والتهميش ، وبدأت قصصه تأخذ مجرى مغايرا تمامًا .

(٦)

كان صبرى حافظ من أوائل النقاد الذين تابعوا أعمال أبناء الستينيات وكتبوا عنها (ولعل هذه مناسبة نقر فيها بحقيقة أنه كان من أوائل النقاد الذين اعتنوا بالاطلاع على محاولاتى الأولى ، فى حديقة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب حيث كان يعمل ، وإنه بادر بالكتابة عنها ، قبل أن أقوم بنشرها) .

صديقنا الناقد صبرى حافظ كتب فى العدد الخاص بالقصة القصيرة الذى أصدرته مجلة (المجلة عدد أغسطس ١٩٦٦) برئاسة يحيى حقى فى معرض حديثه عن حافظ رجب الذى كان قد انقلب فجأة على نهجه الواقعى المألوف ، يقول :

« إن تجربة حافظ رجب لا تعبأ بأى من التقاليد ، ولا تعبأ أساسًا بالتقيد بحرفية الصورة . فتنافرها مع الواقع ليس فى نهاية المطاف غير وجه من وجوه الالتحام بهذا الواقع والصدور عنه ، فهى تنطلق أساسًا من الفانتزى محلقة فى أجواء أكثر جنونًا وسوداوية من أجواء كافكا . . (. . .) فعالمه مليء بالتشوش ، فاقد للتوازن ولكثير من مواصفاته البسيطة غائبة عن سمائه أغلب القيم الإيجابية والسليمة . . . (. . .) إلا أنها من أقدر أقاصيص هذا الجيل على بلورة الملامح العامة والأبعاد العميقة لهذه اللحظة الحضارية التى تصدر عنها ، مشكلة بذلك وجها بارزًا ومهمًا من أوجه ذلك التيار الأقصوصى» .

وكان حافظ رجب قد شارك فى هذا العدد بقصة عنوانها (مخلوقات براد الشاى المغلى) علق عليها يحيى حقى قائلا :

«قرأت هذه القصة فتراءت فى ذهنى لوحة من تصاوير «دالى» فنحن أمام عالم صامت مشوه، أهله قزم، وأصم، وأعور، ومقطوع الساق، وأصلع وامرأة استحالت دمية (. . .) إنسان يسكن علبة سجائر، وإنسان يدخل براد شاى أو ساقًا خشبية، وإنسان ينفذ من أذن إنسان إلى داخله . . (. . .) انظر قوله : «هل تتبادل أنت وأبى مكاننا، وأخيراً أنا كرة اللحم فى رأسك الصلعاء، ويصير ابنك ابنى ويصير أبى صينية القهوة وتصير أنت أبى وأصير أنا أبى وتصير أنت» . نفس مهددة بالفصام والتشتت لعجزها عن التماسك والتوحد» .

اخترت هذه المقاطع الطويلة نسبيًا من مقالة أستاذنا الراحل لأنها تعطى صورة عامة ودالة ليس على خصائص هذا العالم الذى كان استولى على مخيلة حافظ وراح هو يعبر عنه فى لغة تميزت بالإشراق الفنى وجدة الصورة ومباغتتها المدهشة فقط، ولكن لأنها تعطى صورة عن رؤية كاتب مبدع من جيل اسبق ومثقف كبير فى نفس الوقت .

وأنا، بسبب من معرفتى بحافظ رجب، كنت أظن أن قراءة مختلفة كانت كفيلة، اتكاء على العناصر الأساسية الفاعلة فى تجربته الحياتية والفنية التوصل، عبر قراءة أخرى، إلى مرفأ، وخلاص، ربما .

لقد توقفت عند حقى وصبرى حافظ باعتبار أنهما الأكثر جدية وقيمة بين من تناولوا عمله، بينما تجاهلت ما لا حصر له من التعليقات التى لم توفر تهمة واحدة لم تلصقها بعقله، رغم أن الكثيرين من هؤلاء كانوا حميراً، بالمعنى الاصطلاحى للكلمة .

لقد كانت هناك مشاكل نفسية، نعم، وهى مسألة عادية تمامًا ولا يوجد أحد، مبدعًا على وجه الخصوص، بمنجى منها، وقد كانت هناك نصيحة طبية بالاستمرار فى الكتابة من أجل استعادة التوازن، وقد اندفعت موهبته الكبيرة إلى صيغة تعبيرية هى نوع من الإعلاء الجمالى أو (التحويل) القائم على التشويه التلقائى لذلك المكبوت الضارى، هكذا قرأنا ما قرأنا من أعمال فاتنة، حقيقية ومستغربة.

هى حالة لم يكن مجديًا فيها، نقديًا، التوقف عند المحتوى الظاهر لهذه الأعمال (مثل إنسان يدخل من أذن إنسان مثلاً).

كان الأمر يتطلب، هكذا هيئ لى، أن التوقف عند الآليات أو الوسائل، التى تمت بها عمليات التحويل ذاتها، هو الأهم.

و لكن أغلبنا، لم يصبر، ولم يرحم.

ثم نعتذر عن هذا الكلام الثقيل كله. ونقول إن الوعكات كانت تتلاحق، وتتزايد أيام غياب حافظ للعلاج أو الفرار إلى الإسكندرية.

(٧)

طوال فترات انقطاعه لم تتوقف رسائله إلىّ.

وسوف أسمح لنفسى هنا بأن أنشر واحدة من هذه الرسائل:

«البحر، ٩ يونيو ١٩٦٩، مقعد خاص، أصفر بمظلة.

إبراهيم،

أيها الوغد.

أردت أن أراك، أقبلك.

من بلاهة هذا الزمان أن لا يمكننى أن أراك كما أحب.

الوسيلة البدائية العاجزة لحد البله..

وسيلتنا المكتوبة، أستعملها لأراك.

أكتب لك.

كيف نتناول الحكمة لنضمد هذا الجرح؟

إمبابة، وأنت، وحجرة الكنب، والكتب، وحانوت الحلاق، والقلة فوق الحافة،

وأنا وأنت فى حلق الجامعة.. «سفر الجامعة» يثير فينا الاندهاش.

(كنا قرأنا العهد القديم سويًا).

إبراهيم يا وغد.

الإسكندرية رطبة فارغة لا تثير مخزون قاع الأشياء..

تزدحم الأشياء..

تتراكم فوق بعضها وتستسلم للنعاس..

وتموت الدوامة فى صمت.

كيف العودة إلى الديار من جديد يا وغد؟

الذين فى يدهم العودة قتلوها بالتجاهل المستبد..

اصحوا يا سادة الكون الغريق.

تمردت على العمل أمس .

لم أذهب إلى المتحف اليوم .

جلست فى مواجهة الكورنيش لأراك .

أنت يا صديقى كيف تعيش؟

كيف تلعب لعبة الاستمرار؟

كيف تتناول زادك؟

هل تلعب لعبة الكتابة؟

فى مأواك أراك . .

فى اضطجاعك أراك . .

فى الساعات المتلاحقة أراك . .

تنكب على الأشياء المزروعة بين دفتى ما يسمى بكتاب .

عصر الشهداء موجود . .

شهداء ملايين الكلمات . .

شهداء بحر الوعى . .

إلى أين يا إبراهيم؟

فررت من القاهرة . .

لكن هذه المدينة حقيقية يا إبراهيم . .

كل من خارجها يلعب ألعابه لتحدث المعجزة وتلتفت مرة إليه .

يا إبراهيم . .

واصل إثارتى ليُخرج المخزن الثانى تراكمات السنين .

لو لم تكن أنت ما كنت قد جئت إلى البحر والكرسى الأصفر الدائر تحت المظلة فى منتصف طريق الكورنيش وجلست أكتب لك .

قلت عن حياة تتحرك عندكم .

كن بديل عينى وقل لى :

ما دورنا فيها؟

اليوم رأيت فاروق منيب (القاص والمحرر الثقافى الراحل) يجلس فوق دكة صفحته الجديدة فى المساء (يقصد الجريدة) .

لم تقل لى متى أحضر لتناول القربان من خزينة الجمهورية (يقصد صرف مكافأة قصة منشورة له) .

عبد الفتاح الجمل (أحد قوى الخير النادرة فى حياتنا الثقافية) توهج المساء .

تركه . . غادره . .

يا فتى حرك شهيتك معى لنقيم مآدبنا .

هل سيحدث مرة ثانية أن تحرك غيبوبتك؟

تركب القطار . . تنزل الإسكندرية . . تذهب إلى البحر . .

تسأل عن عنوانى ، ثم تكف . .

وتعود إلى القاهرة بذكريات يوم تقضيه ولا أراك؟

(كنت قد ذهبت لزيارته ولم أعثر على بيته وكتبت له عن ذلك) .

لو لم يغادر الهارب مدينتكم لكان قد حاكم بعض الذين يحاكمون غيرهم الآن .

أنتظر بلهفة كميات كثيرة من نفسك .

أقرأ بشكل مرعب . .

عدت إلى أرسين لوبين . .

الفرسان الأربعة . . إسكندر ديماس . .

آخر ما قرأت قصيدة لمايكوفسكى . .

هذا الوغد يثيرنى لأبحث عنه .

هل تعرف طريقة لإيصال السلام لإبراهيم فتحى؟

لقد فقدت بعد العودة عنوانه . . وأحس بالذنب لأننى لم أرسل له السلام .

رسالتك الأخيرة عملت شيئًا غريبًا (تناولت الرسائل القادمة لى من كل مكان . . جمعتها . . كومًا . .

وفقدتها إلى الأبد) .

كيف حال أسرتك؟

يا للشوق يا ولد . .

مشكلة تحويل الزمن . . مرعبة .

أكتفى هنا . . إلى لقاء . .

أخوك . .

حافظ » .

(٨)

مضت السنوات إذن وتوقف حافظ رجب عن الكتابة إلىّ . صمت عنى وعن الآخرين . استقر موظفًا بسيطًا ، هادئا ومنسيًا فى أرشيف المتحف الرومانى بالإسكندرية . لقد تعاقبت الأجيال ، وبهتت الصور ، وبدا حافظ منسيًا إلا من أبناء جيله الذين احتفظوا له بمكانة لا يطاوله فيها إلا القليلون .

(٩)

وخلال الشهر الماضى جاء من الإسكندرية وحضر ندوة لم يعلن عنها بأتيلييه القاهرة ، ورحل دون أن نراه . وأخبرنى الشباب أن الحضور كان قليلا ، وأنه جلس على المنصة ، صامتًا ، عجوزًا هده الإعياء ، وأنا لا أصدق ، لأن رفاق الشباب يحتفظون فى الذاكرة بصورتهم التى فارقونا عليها . إنهم يظلون شبابًا كما هم ، مهما انصرمت الأعوام حتى نلتقيهم ، حينئذ ندرك ، نحن ، ما صرنا إليه .

وإذا كان بوسع أحد ، مثلى ، أن يظن بأنه كان من الناجين ، فلقد حدث

ذلك لأننا كنا أبناء شرعيين لهذه «القاهرة» ، وليس بالتبنى ، لم نتوقع منها شيئًا ، لذلك فوتنا عليها ، وعلى أنفسنا ، مشاعر الخيبة والمرارة .

(١٠)

ما أعاننا على الاستمرار (أنت . . يا من هناك) أننا كنا أقل طيبة منك ، وأكثر قسوة .

(مارس ١٩٩٧)

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٨٧٨٧
الترقيم الدولى 7 - 0879 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

عرّف إبراهيم أصلان ككاتب قصّة من طراز رفيع، منذ مجموعته الأولى الفاتنة «بحيرة المساء» التى صدرت فى أواخر الستّينيات.

وعرّف أيضاً كروائى أضافت أعماله الروائيّة للرواية العربية، منذ روايته الأولى الشهيرة «مالك الحزين» التى قدّمتها السينما فى فيلم شهير بعنوان «الكيت - كات».

وفى هذا الكتاب يسرنا أن نقدم جانباً بديعاً من إبراهيم قد لا يعرفه الكثيرون، إلى جانب معرفتهم به كقاص وروائى كبير، وهو إبراهيم «النّاثر» صاحب اللقطة البالغة الذكاء والإحكام والانضباط ، والقائمة أساساً على الاستبعاد من أجل استخلاص الجوهر وتخليصه . إنّه يرى غير العادى فى العادى، ويحوّل الواقع المألوف إلى شعر خالص.

أصلان فى أحد وجوهه التى لا يعرفها الكثيرون «ناثر» حكّاء عظيم، ضمّ عدداً من لوحاته ولقطاته وصوره تحت عنوان أكثر من دالّ: «خلوة الغلبان».

دار الشروق

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

ص.ب ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

www.shorouk.com e-mail:dar@shorouk.com

